شيخ العلماء المجاهدين

محمّد بن عزّوز



نور الصحراء

حياته و آثاره

علي الرضا الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم

شيخ العلماء المجاهدين

محمّد بن عزّوز

نور الصحراء

حياته و آثاره

الدار الحسينية للكتاب

شيخ العلماء المجاهدين

محمّد بن عزّوز

نور الصحراء

حياته و آثاره

علي الرضا الحسيني

قال تعالى (الأحزاب) يٰأيها الذين ءامنوا

اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الولي الصالح، الزاهد الورع، الصوفي التقي النقي، شيخ الطريقة الخلوتية، شيخ زاوية (البرج) وشيخ مشايخ الزاويتين (زاوية سيدي علي بن عمر في مدينة « طولقة » بالجزائر)[1] و(زاوية سيدي مصطفى بن عزوز في مدينة « نفطة » بتونس)[2] وفروعهما المنتشرة انتشاراً واسعاً ولاسيما في الجزائر وتونس والمغرب. وبركة أهل عصره ومصره سيدي محمد بن عزّوز رضي الله تعالى عنه.

أطلق عليه شيخه عبد الرحمن باش تارزي لقب (نور الصحراء) لما توسَّم فيه من طهارة وتقوىٰ وولاية. كما عرف لدىٰ العديد من الكتاب والمؤرخين بصيغة (شيخ العلماء المجاهدين).

تنسب إليه أسرة آل عزّوز الماجدة الكريمة الأصيلة، المنتشرة في كافة أنحاء العالم الإسلامي وأوربة، ولا سيما في الجزائر وتونس والمدينة المنوّرة، طار صيتها في كل مكان، وطاب ذكرها في كل مجلس، وشعت أنوارها في البلدان، بفضل أعلامها ورجالاتها وشعرائها وفقهائها وأدبائها ممن تخرجوا من المدرسة العزّوزية الشريفة، وسلكوا طريق الحق والخير والرشاد، وغرسوا في كل أرض استوطنوها العلم النافع والأدب الجمّ، وكانوا بفضل الله تعالى من أولئك المؤمنين الصادقين الذين يخافون الله حقّاً وصدقاً، والعاملين في ميادين الدعوة الإسلامية بإخلاص يندر مثاله.

شجرة طيبة مباركة، تعددت فروعها، وأثمرت بكّل طيب بهيج،

---

(١) انظر كتابنا (زاوية سيدي علي بن عمر ـ طولقة).

(٢) انظر كتابنا (زاوية سيدي مصطفى بن عزّوز ـ نفطة).

وما زالت ثمارها حتى اليوم ، وإلى ما شاء الله تعالى ، غذاء للأرواح والعقول ، وبورك في مؤسس هذا الصرح العلمي سيدي محمد بن عزّوز ، وجزاه الله تعالى خير ما يجازي به عباده الصالحين .

هذه الزوايا الثلاث المشعة بنور الهدى والعرفان ، المجاهدة في الليل والنهار ، نهار حفظ القرآن ودروس الشريعة وإقامة الفرائض ، وليل التهجد والعبادة والتفكير والتأمل ، والصامدة في وجه غريب كافر محتل ، قادم من أوربة بجيوش محمّلة بالرذائل والضلالات والأفكار الخبيثة ، ليحط رحاله في الأرض الإسلامية الطاهرة ، وليبثّ سمومه وأراجيفه ، ويقتلع عقيدتها ليبتلع منها خيراتها من الزراعة والمعادن والقوى البشرية .

هذه الزوايا من حقّ التاريخ علينا ، بل من واجبنا نحوها ، أن نحفظ آثارها ، ونشير إلى أعمالها الباهرة في إرشاد الأمة وإنارة طريق الخير والفلاح للناس ، والدعوة إلى الصلاح والنجاة في الدنيا والآخرة .

خفي على كثير من الناس جلائل المهام التي قامت بها تلك الحصون الصامدة الصابرة ، القائمة على أبواب الصحارى ، الملتحفة بقساوة الطبيعة ، وعلى مشارف المدن ، وأسمى غاياتها تثقيف العقول وتنوير البصائر ، وثبات في مقارعة الجهل والإلحاد من جانب و(الفرنسة) والكفر من جانب ، والحضّ على الجهاد وسلوك طريق الاستشهاد في سبيل تحرير الأرض من الغاصب ، وإعلاء كلمة الله تعالى .

لعبت فرنسا دوراً كبيراً في إلصاق التهم الباطلة بالزوايا الصالحة ، وأصحاب الطرق الصوفية ، ومحاربتهم بكل وسيلة ، وسلكت في هذا النفق المظلم مسلكين يلعن كل واحد منهما الآخر :

- تنصيب بعض الجهلة كرجال زوايا وطرق ، ينفّذون سياستها ، ويفسدون في الأرض فساداً بعيداً ، ويدّعون أنهم من أهل الصلاح والإصلاح ، ومن ورائهم عصا المحتل وأمواله ومغرياته تقرع ظهورهم ، وتظهرهم إلى الناس

والعالم بصور شائنة مشوّهة ، وتدعي أن هذا هو الإسلام ورجاله ! قبّحهم الله .

ـ بثّ الأكاذيب والافتراءات حول الزوايا والطرق التي تعمل صادقة على التنوير والتحرير .

استأجرت فرنسا أقلاماً وألسنة وأبواقاً لتخوض مع كل ناعق ، وتحلف الأيمان بأن الكاذب هو الصادق ، ونشرت بما أضلّت الكتب والمقالات عن صلحاء الرجال وأفاضل الزهاد والأتقياء والعلماء وعلى زواياهم وأماكن عبادتهم ، ونشرت غلالة سوداء قاتمة عليها ، وما زالت تلك التخيلات والضلالات تعمل عملها في عقول بعض الناس حتى اليوم !

ولو أنصف القوم ، لتحرّوا الدّقة في أقوالهم عند الحديث عن الزوايا والطرق الصالحة ، ولاتّقوا شرور أنفسهم من الخلط والربط بين الضارّ والنافع ، وامتنعوا عن تناول الأولياء والأتقياء بمكروه وبالأوصاف والصفات التي لا تخلو من آثار لعبودية الكفر والإلحاد .

إن دور الزوايا والطرق الصادقة في نشر العلم ، ومحاربة الضلال ، والعمل في ميدان الجهاد ، لا ينكره أو يجحده إلا ضالّ أو مفرط أو غافل ، وإن دراسة رصينة لتلك المؤسسات العلمية تبين عظمة الدور الذي قامت به في الحفاظ على لغة القرآن .

إن كتاب (محمد بن عزّوز ـ نور الصحراء) عمل نافع إن شاء الله تعالى في خدمة التراث الإسلامي والحفاظ عليه من عوادي الزمن ، نقدم فيه :

آ ـ لمحات من حياة الشيخ محمد بن عزوز وآثاره العلمية المطبوعة .

ب ـ الرسائل المخطوطة التي وجدتها في المكتبة العريقة الجامعة النادرة (زاوية سيدي علي بن عمر) في مدينة (طولقة) بالجزائر خلال زيارتي لها في صيف عام ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م . وتضمنت بعضاً من آثاره العلمية ومكاتباته .

ج ـ الملتقى الأول للعلامة الشيخ محمد بن عزّوز (طولقة ـ زاوية الشيخ علي بن عمر) في ١١ ـ ١٢ ربيع الأول ١٢١٨ هـ الموافق ١٦ ـ ١٧ جويليه

تموز ١٩٩٧ م . في ولاية (بسكرة) بالجزائر . والكلمات القيمة التي ألقيت فيه .

لعلَّ هذا العمل يضع في الأذهان المعاني السامية التي شيّدت عليها بعض الزوايا المجاهدة الطاهرة ، ولعل هذا العمل يوفي حقاً من حقوق الشيوخ علينا ، رغم ضآلة هذا العمل وافتقاره إلى دراسة وبحث أعمق ما لم يتوفر لنا الوقت المطلوب الآن .

ومن المفيد أن أتشرف بالقول أن الشيخ محمد بن عزّوز هو جدّ جدتي السيدة حليمة السعدية بنت سيدي مصطفى بن عزوز ، والدة سيدي الوالد زين العابدين بن الحسين .

والحمد لله على ما هدى والحمد لله على نعمة الإسلام .

علي الرضا الحسيني

محمد بن عزوز

(١١٧٠ هـ تقريباً - ١٢٣٣ هـ)

اشتهر باسم محمد بن عزوز ، البرجي نسبة إلى (البرج) في منطقة (بسكرة) بالجنوب الجزائري ، المدينة التي ولد وتوفي ودفن فيها بزاويته الشهيرة التي قامت هناك على الصلاح والتقوى ، وقبره يزار على مدار السنة.

تلقى تربيته وعلومه عن والده الولي الصالح أحمد بن يوسف ، وحفظ القرآن الكريم ، وعمل على تحصيل العلوم ، طلبت نفسه الطاهرة الزكية على أن يلحق بأهل الباطن ، فيمم وجهه شطر شيخ الطريقة الكبير محمد بن عبد الرحمن الأزهري ، وطلب منه الدخول في الطريقة والتربية والسلوك ، فلبى طلبه وأدخله الخلوة ، وفي أثناء تلك المدة التي قضاها في التربية والسلوك ، افتقدته والدته (واشتد شوقها إليه ، وقلقها عليه ، فصعدت سطح دارها ، ونادته بثلاثة أصوات ، فسمع نداءها في الخلوة ، وأخبر شيخه سيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري بما سمع ، فأمره بالرجوع إلى والدته ، وقال له: إن أدركتني المنية من بعدك ، فعليك بخدمة الشيخ عبد الرحمن باش تارزي تلميذه دفين قسنطينة ، فكان الأمر كما ذكره ، ولازم خدمة الشيخ باش تارزي إلى وفاته ، فكان تمام سلوكه على يده)[١].

أتم علومه في التربية والسلوك على يد شيخه باش تارزي كما أوصاه شيخه الكبير ، ورجع إلى موطن سكناه في (البرج) واستقر فيها ، ونصب نفسه للتربية والسلوك.

---

(١) كتاب (تعريف الخلف برجال السلف).

نسبه الشريف

هو الولي التقي النقي الذاكر الزاهد السالك المربي الشيخ سيدي محمد البرجي ابن الولي الصالح المعتقد البركة الشيخ السيد أحمد ، ابن الصفوة السالك أبي المحاسن الشيخ السيد يوسف ، ابن المربي السالك أبي إسحاق الشيخ السيد إبراهيم ، ابن العلامة الجليل والحبر المحقق النبيل المؤلف مفتي الأنام وملجأ الخاص والعام الشيخ السيد محمد ، ابن المربي السالك الشيخ السيد محمد ، ابن العالم العلامة ومن سلمت له من سائر معاصريه الإمامة أبي الحسن الشيخ السيد علي ، ابن صاحب السلوك والتوبة السنية أبي العباس الشيخ السيد أحمد ، ابن الكبريت الأحمر وصاحب السلوك الأشهر الشيخ السيد عبد العزيز الملقب بعزوز ، ابن ذي المفاخر والمكارم الشيخ السيد أبي القاسم ، ابن أبي الربيع المتفق على تبريزه من الجميع الشيخ السيد سليمان ، ابن الولي الصالح والإنسان الكامل والزناد القادح الشيخ السيد عبد الرحمن ، ابن الشيخ السيد دليم ، ابن الشيخ السيد الحسن ، ابن الشيخ السيد أبي القاسم ، ابن الشيخ السيد عبد الكريم ، ابن الشيخ السيد إبراهيم ، ابن الشيخ السيد عبد الله ، ابن الشيخ السيد عبد العزيز ، ابن الشيخ السيد عبد القادر ، ابن الشيخ السيد عبد الرحيم ، ابن الشيخ السيد عبد الله ، ابن باني مدينة فاس ومؤسس الدولة بالمغرب الأقصى الشيخ السيد إدريس الأصغر ، ابن العلم الأشهر السيد إدريس الأكبر ، ابن بضعة الرسول الشيخ السيد عبد الله الكامل ، ابن سمي جده الشيخ السيد محمد ابن سيدنا الحسن السبط أحد الريحانتين لسيد الثقلين ، ابن أسد الله الغالب سيد الجميع ومولاهم الإمام علي بن أبي طالب من زوجه فاطمة الزهراء البتول بنت الرسول الأعظم وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أبناؤه

ترك أبناء كلهم من العلماء والأتقياء الصالحين وهم:

١ ـ **الحسين**: مات مقتولاً ، ودفن حذو والده.

٢ ـ **الحسن**: تولى الإمارة بالصحراء تحت رئاسة الأمير عبد القادر ، مات في السجن بجزيرة قرب مرسى (برج التالة) بضواحي مدينة (عنابة) في الجزائر ، ودفن هناك.

٣ ـ **التارزي**: استوطن (نفطة) في الجنوب التونسي ، وعاش فيها مدة ، ثم هاجر إلى المدينة المنورة ، وتوفي فيها ودفن بالبقيع.

٤ ـ **مصطفى**: استوطن (نفطة) وتوفي ودفن فيها.

٥ ـ **محمد**: انتقل إلى مدينة (القيروان) واستوطنها ، وتوفي بها ، وما زال فرعه بها إلى الآن.

٦ ـ **أبو العباس**: لم يترك نسلاً ، توفي بنفطة ودفن بها.

٧ ـ **المبروك**: استوطن مدينة (الأغواط) في الجزائر ، وتوفي بها ودفن هناك ، وما زال فرعه فيها.

٨ ـ **محمد الشيخ**: عاش في رعاية وكفالة سيدي علي بن عمر ، ومات في (طولقة) ودفن في زاويتها.

من دعاء الشيخ محمد بن عزوز

اللهم ارحمني إذا واراني التراب ، ووادعنا الأحباب ، وفارقنا النعيم ، وانقطع النسيم.

اللهم ارحمني إذا نسي اسمي ، وبلي جسمي ، واندرس قبري ، وانقطع ذكري ، ولم يذكرني ذاكر ، ولم يزرني زائر.

اللهم ارحمني يوم تبلى السرائر ، وتبدّ الضمائر ، وتنصب الموازين ، وتنشر الدواوين.

اللهم ارحمني إذا انفرد الفريقان ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، فاجعلني يا رب من أهل الجنة ، ولا تجعلني من أهل السعير.

اللهم لا تجعل عيشي كدّا ، ولا تجعل دعائي ردّا ، ولا تجعلني لغيرك

عبدا ، إني لا أقول لك ضدا ، ولا شريكا وندّا .

اللهم اجعلني من أعظم عبادك عندك حظاً ونصياً من كل خير تقسمه في هذا اليوم وفيما بعده ، من نور تهدي به ، أو رحمة تنشرها ، أو رزق تبسطه ، أو ضر تكشفه ، أو فتنة تصرفها ، أو معافاة تمن بها برحمتك ، إنك على كل شيء قدير.

أصبحنا وأصبح كل شيء والملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير [(١)]..

سافر لأداء فريضة الحج ، وامتطى راحلته قاصداً مكة المكرمة ، وأخذ معه ثلاثة من نخبة تلاميذه ، وهم سيدي علي بن عمر ، وسيدي عبد الحفيظ الخنقي ، وسيدي مبارك بن خويدم.

ولما رجع رضي الله عنه من أداء فريضة الحج ، وجد الوباء منتشراً في (الزيبان) فكان آخر المصابين به سنة ١٢٣٢ ، ودفن بقرية (البرج) وبها ضريحه ، ويأتيه الزوار من كافة أنحاء المغرب.

---

(١) من كتاب (الدر المكنوز في حياة سيدي علي بن عمر وسيدي ابن عزوز).

رسالة المريد

في قواطع الطريق وسوالبه وأصوله وأمهاته

الحمدُ لله الذي ألهمنا   نظمَ أصولٍ وقواطعٍ لنا
ثم صلاتُه على سرِّ الوجود   محمد أكرمِ وافٍ بالعهودْ
وآله والصَّحب والأتباع   وكلِّ قطُبٍ للرَّشادِ داعِ
وبعدُ إنَّ المرءَ ليس يشرُف   إلا بإحكام الذي سيوصف
من التجنب لكلِّ قاطع   والارتدا لكلِّ أصلٍ جامعِ
وقد نظمتُ ما أفاد شيخُنا   مِن أمهات وسوالبِ المنى
إذ طالَما بالغَ في تفصيلها   فعند ذا شرعتُ في تحصيلها
سميتُها رسالةَ المريد   فيها لهُ مِن كلِّ ما يفيد
فقلتُ طالباً مِن الرحمن   عوناً وتبليغاً إلى الإحسان
قواطع المريد فاعلَمْ عشرَّة   رؤيتُه أعمالَه معتبرة
كذا امتدادُ أملٍ تُحَدِّثُ   نفسُه أنَّهُ وليٌّ وارثُ
قناعةٌ بوارِدِ الأحلام مع   ركونه إلى قبول الخلق دعْ
تأنسٌ بالورِدِ معْ تلذُّذِ   بوارِدِ سكونُه الوعد خُذِ
والاكتفا بزعمه والغرَّة   بالله تمَّت هذه العُشيرة
وَصِفْ لها خمساً سوالباً أتَتْ   إرسالُه جوارحاً قد أودعَتْ
لدى معاصي الله والتصنُّعِ   بطاعةِ الله لخلقٍ يمنعِ
مثلُهما طمَعُه في الخلقِ   وقيعةٌ في عرضِ أهل الحقِّ
وعدمُ احترامهِ للمسلمين   على الذي أمرَ ربُّ العالمينْ
وأمهات العشرِ قد تقرَّرتْ   إنْ حلَيتْ نفسٌ بها تطهَّرتْ

لـزومُـكَ التقـوى بفعـلِ مـا أمـرْ ... بـه وتـركِ كـلٍّ مـا عنـهُ زجَـرْ
وهكـذا العمـلُ بـالأسبـاب ... التـي يكمـلُ لـذوي الألبـابِ
بهـا التقـى ويستـدام واعـدُدا ... تيقّـظ القلـب بمـا قـد وردا
ومثـلُ ذا صحبـةُ مَـنْ يَـدُلُّـكَ ... علـى الإلـه ويُـريـك عَيبَـكَ
وجـانـبِ الأضـداد أهـلَ الغفلَـة ... والاغتـرار هـم أشـدُّ فتنـةْ
كـذا التـزامُ أدب بحسـب ... صـاحـبِ ذي التجـريـد والتسبُّـبِ
آدابُ ذي التجـريـدِ قـالـوا أربعَـةْ ... إنصـافُـه مِـنْ نفسـه لمَـنْ مَعَـهْ
وعـدمُ انتصـافـه لهـا وصِـفْ ... لـذا احتـرامِ أكبـرِ منـهُ عُـرِفْ
ورحمـةُ الأصغـر منـه ثـم زدْ ... أربعـةً للمتسبِّـب تُفِـدْ
وهـي اجتنـابُـهُ مِـن أهـلِ الظُّلـمِ ... إيثـارهُ لعـامـلٍ بـالعلـمِ
كـذا مـواسـاةُ ذوي المجـاعَـة ... لـزومُـه للخمـس فـي الجمـاعـةْ
وسـوِّ بـالتُّـراب لا تعبـأ بِمَـنْ ... عَـن هـذه خـلا وللضـدِّ ظَعَـنْ
وأعـطِ لـلأوقـاتِ حقـاً قـد وَرَدْ ... واتـرُكْ تكلُّفـاً وراقـب الصَّمـدْ
وعمِّـرِ القلـبَ بـأربـعِ خصـالِ ... بـذكـرِ غُـربتِـكَ فـي دارِ الـزوالِ
وذكـر مصـرعِـك حـالَ مَـوتتِـك ... ووحشـةٍ ووحـدةٍ بحُفـرتـك
وذكـركَ الـوقـوف بـاديَ الـوَجَـلْ ... بيـن يـدي ربٍّ خبيـرٍ بـالـزَّلـلْ
وخمسـةٌ هـي الأصـول الـوافيـة ... وهـي التُّقـى فـي السـرِّ والعـلانيـةْ
كـذا اتبـاعُ سنَّـة الـرسـول ... فـي القـولِ والفعـل بـلا عُـدولِ
أعـرِضْ عَـن الخلـقِ سـواءً أدبـروا ... أو أقبلـوا فـالله نِعْـمَ النـاصـرُ
وارضَ بقسمـةِ إلهـك الخبيـر ... فـي كـلِّ مـا أعطـىٰ قليـلاً أو كثيـر
وارجـع لـهُ فـي كـلِّ حـال قـد أتـتْ ... سـراءَ أو ضـراءَ كيـفَ مـا وَفَـتْ
فـذي ثـلاثـون فنصفُهـا دُرَرْ ... حـلٍّ بهـا النفـسَ يُجـانبـك الضَّـرَرْ
ونصفُهـا الأولُ كـالأفـاعـي ... ففِـرَّ منهـا لا تُجِـبْ لـداعـي
فهـي العلـومُ كلُّهـا إذ جُمعـتْ ... لعـامـلٍ خيـراً وشـراً أَبْعَـدَتْ
كـذا أفـادهـا لنـا الأستـاذُ ... نِعْـمَ المفيـدُ ونعـم المـلاذُ
والحمـد للهِ علـى التمـامِ ... ونعمـةِ الإيمـان والإسـلامِ

شرح رسالة المريد

في قواطع الطريق وسوالبه وأصوله وأمهاته

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الملهم للصواب، الفاتح لمن أناب إليه الأبواب، الميسّر لكل سالك إليه بنية صادقة جميع الأسباب، المزيل عن طريق السالكين القواطع والسوالب، بتحرير الأصول والأمهات من أولي الأذهان الثواقب.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أصل كل مخلوق وموجود، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات كل مؤمن مولود، وعلى آله وأصحابه الموفين بالعهود، الزائلين عن طريق الحق كل قاطع وسالب وجَحود.

وبعد. فهذا تقييد يكون كالشرح على المنظومة التي ألهمنا الله إلى وضعها في قواطع الطريق وسوالبه وأصوله وأمهاته ومذاهبه. ونظمتها زمن من قراءتي لما ذُكر على شيخنا العلامة المحقق، الدراية المدقق، قطب الزمان والعصر، وتحفة الأوان والدهر، عمدة المريدين، ومربي السالكين، سيدي ومسندي، ومَنْ على الله ثم عليه معتمدي، الشيخ سيدي عبد الرحمن باش تارزي أطال الله بقاء، ووالى إمداده وارتقاءه.

ولما فرغت من نظمها، بعثت بها إليه نستشيره في إبرازها للإخوان إن صلحت، وإخمالها وسترها إن كانت عن صوب الصواب تحوّلت، فلما لحظها بنظره الصائب، وذهنه الثاقب، دعا لي بدعوات أرجو من الله الوصول

إليها ، وأشار عليَّ بوضع تقييد يكون كالشرح عليها ، فسررت بقبوله إياها أتم السرور ، ولم أتخلف عما أشار به إذ أنا عبد الله مأمور ، فاعتمدت على سرّه ونوره المنير ، ولم ألتفت لقلة بضاعتي وباعي القصير ، لعلمي بأني داخل في حماه ، وكان الحما على من حماه، وحيث ذكرت لفظ شيخنا في هذا التقييد ، فالمراد به هنا السيد المجيد. والله أسأل أن ينفع به من حصّله من الإخوان ، وأن يجعله خالصاً من كل رياء وعجب ونقصان ، بمنّه وكرمه. وهذا أوان الشروع بالمقصود ، بعون الله المالك المعبود ، صاحب الفضل والجود.

الحمدُ لله الذي ألهمَنا نظمَ أصولٍ وقواطعٍ لنا

أقول بتوفيق الله: موجب ابتداء هذه المنظومة كغيرها بالحمد أمور ، منها التأسّي بكتاب الله تعالى ، فإنه مبدوٌّ بالحمد لله ، ومنها قوله ﷺ [كل أمر ذي بال لا يبتدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم] وفي رواية [أقطع] وفي آخرى [أبتر] ومعنى الجميع أنه ناقص قليل البركة والخير ، ومنها استمداد الأفضال على ابتدائهم بالحمد لله بين يدي ما أرادوه من الأمور التي لها بال ، وأما حقيقته ، ففيه تعاريف كثيرة ، أحسنها وأوضحها كما قال الشيخ الجزولي: إن الحمد هو الثناء على المحمود بصفات الكمال ، ومحاسن الأمور من الأقوال والأفعال ، واختلف هل الحمد مغاير للشكر أو مرادف له؟!

والذي عند سيبويه: الترادف ، قال في باب افتراق فعلت وأفعل ، وتقول: حمدته إذا جازيته وقضيته حقه ، وقال ثعلبة: تقول: حمدت الرجل ، إذا شكرت له صنيعه ، هذا كالصريح في الترادف ، والمشهور أنهما متغايران ، وذلك أن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري ، سواء تعلق بالفضائل أو بالفواضل. والشكر فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب الإنعام ، سواء كان ذكراً باللسان ، أو اعتقاداً أو محبة بالجنان ، أو عملاً وخدمة بالأركان. فمورد الحمد اللسان وحده ، ومتعلقه يعم النعمة وغيرها ، ومورد الشكر اللسان وغيره ، ومتعلقه يخص النعمة وحدها ، فالحمد لله أعمّ من الشكر باعتبار المتعلق ، وأخص منه باعتبار المورد ، والشكر بالعكس.

واختلف أيضاً: هل الحمد والمدح بمعنى واحد أو متغايران؟! والذي يقول بالتغاير، يفرق بينهما بأن الحمد مخصوص بالحي، والمدح يعمّ الحي وغيره. ولذلك يقال: مدحت اللؤلؤة على صفائها، ولا يقال: حمدتها.

واختلف في (الألف) و(اللام) من الحمد لله، فقيل: إنها للاستغراق، استغراق جميع أفراد الحمد. إذ في الحقيقة ماحمد الله إلا الله، لأنه تارة حمد نفسه بنفسه كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ وتارة حمد نفسه بفعله كحمد العبيد له تعالى، وتارة حمد فعله بنفسه كقوله: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. وتارة يحمد فعله بفعله، كحمد العبيد بعضهم بعضاً. فالحمد منه بدأ وإليه يعود. وقيل: إنهما للجنس، وهو يستلزم الاستغراق، وقيل: للعهد والمعهود حمد الله لنفسه في الأزل، كما أجاب به الشيخ أبو العباس المرسي ابن النحاس النحوي حين سأله عن ذلك. وقوله لله: اللام فيه للملك والاستحقاق والاختصاص، لأنه تعالى مالك الحمد ومستحقه ومختص به.

إذ لم يحمد الله إلا الله كما تقدم. والله: علم على الذات الواجبة الوجود، المستحقة للعبادة من كل موجود، وهذا الاسم الكريم جامع لمعاني الذات والصفات ومعاني أسماء الأفعال، فإليه ترجع جميع معاني الأسماء والصفات، وهو صالح للتعلّق دون التخلّق، والأكثرون على أنه هو اسم الله الأعظم، وهو اسم خاص به سبحانه وتعالى، لم يتسمّ به أحد ولا يتسمّى قال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.

وهذا الاسم العظيم تكرر في القرآن ألف مرة وخمسمائة وستين مرة، كذا قال الشيخ الخروبي والعهدة عليه، وهذا مما يدل على عظمة شأنه والاهتمام به، وكيف لا؟! وهو علم على الذات الموجودة لجميع العالم علوه وسفله المعدة له بما يستحقه ويناسبه ابتداء ودواماً، تفضّلاً منه وإنعاماً.

واختلف هل مرتجل أم مشتق؟! فذهب الشافعي والقفّال والغزالي والبلخي والخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين إلى أنه غير مشتق، وذهب أكثر الأدباء وجل المعتزلة إلى أنه مشتق. وقد منع جماعة من العلماء دخول الاشتقاق في

أسمائه تعالى، والصحيح دخوله، وجمع بعضهم فقال: كان مشتقاً فصار علَماً، قال الشيخ الخولي: ومنشأ الخلاف يرجع إلى أنه هل هو اسم لله تعالى علم عليه يجري مجرى الأعلام كزيد وعمرو في المربوبين.وعلى هذا فالألف واللام فيه زائدة لازمة، أو مشتق من معنى قائم بذاته سبحانه وتعالى يجري في إطلاقه عليه مجرى عالم وقدير.قالوا والجاري على هذا أن تكون (ال) فيه للتعريف وهو علم بالغلبة، وهو مراد من قال كان مشتقاً ثم صار علماً أي بالغلبة على القول بالاشتقاق، فقيل من إله إذا تعبد، ولهذا كانوا يسمون الأصنام آلهة لاعتقادهم أنها تستحق العبادة، وقيل: من إله إذا اعتمد عليه، لأنه هو الله يعتمد عليه، ويرجع في الشدائد إليه، وقيل من إله إذ تحير لأن العقول تتحير في كنه صفاته والإحاطة بكنهه. وقيل من أله إلى كذا إذا سكن إليه واطمأن، لأن الخلق يسكنون إليه ويطمئنون لذكره، وقيل من أله بالمكان إذا قام فيه، لأنه سبحانه لا يتبدل ولا يتغير ولا يتنقل. وقيل من أله إذا افتقر إليه لافتقار جميع الممكنات إليه. وقيل من لاه إذا احتجب، وقيل من لاه إذا ارتفع وعلا. اهـ. كلام الشيخ الخولي وبعضه بالمعنى.

والكلام على الحمدلة طويل عريض وشائع مستفيض، والقصد في هذا التقييد الاختصار لا التطويل والإكثار.

وقوله (الذي ألهمنا). الإلهام: إلقاء الشيء في القلب. وقوله (نظم أصول) الخ. النظم: هو الجمع على وجه التناسب، والمراد به هنا ما قابل النثر، ونظم مفعول لألهم، وقوله جمع أصل، والأصل: ما يبنى عليه غيره، والفرع بالعكس. والقواطع: جمع قاطع، وهو كل ما يقطع المسافر عن بلوغ قصده، والمراد بالمسافر هنا: المسافر سفراً معنوياً لا حسياً، وهو السائر إلى الله تعالى بترك المألوفات النفسانية والتعلق بالمعاني الروحانية.

وقوله (لنا): أي معشر المريدين المبتدئين، فإن المبتدىء تعرض له قواطع فلا يتخلص منها إلا من سبقت له من الله سوابق العناية والهداية، ولا ينفعه إلا الالتجاء والاضطرار إلى مولاه القوي الستّار والتبرّي من الحول

والقدرة ، ورؤية نفسه بعين الاحتقار ، ولذلك كثر المريدون وقلّ الواصلون ، وما ذلك إلا لعزّة سلوك هذه الطريق مع شهرة منافعه لكثرة قواطعه وموانعه. ولولا مشايخ التربية العارفون بكيفية السلوك لما وصل مريد إلى حضرة مالك الملوك.

وهذا البيت شطره الأول لشيخنا العلامة ، فإنه لما أشار عليّ بوضع هذا التقييد قال لي: اجعل لمنظومتك خطبة ، وقل في أولها: الحمد لله الذي ألهمنا. وزد ما شئت. وكنت أنا وضعت لها خطبة قبل أن يقول ، وقلت في أولها:

حمداً لربّنا العظيم الهادي إلى سبيل الحق والرشاد

فلما سمعت كلام الشيخ ، أزلت مقولي وأثبتُّ مقوله رجاء بركة لفظه وسرِّ لحظه ووعظه.

ثم قال تأدية لما وجب من الصلاة المأمور بها في آية الأحزاب تعظيماً لسيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى آله وجميع الأصحاب ، ما كشف عن القلوب حجاب ، وحطّ نقاب.

ثمّ صلاتُه على سِرِّ الوجودْ محمّدٍ أكرمِ وافٍ بالعُهودْ

لاشكَّ أن الصلاة على النبي ﷺ من أعلى القربات وأكبر العبادات ، وقد تعبدنا الله سبحانه بها ، ووعدنا تعالى بالمكافآت عليها ترغيباً لنا فيها وتحريضاً عليها ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾. فكل صلاة عليه ﷺ من العبيد ، هي تابعة لصلاة الله وملائكته عليه وقال: [من صلى علي مرة واحدة صلى الله عليه بها عشر مرات ، ومن صلى علي عشر مرات صلى الله عليه مائة مرة ، ومن صلى عليَّ مائة صلى الله عليه ألف مرة ، ومن صلى عليَّ ألف مرة حرم الله جسده على النار]. فانظر هذه المضاعفة العظيمة الموافقة لقوله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ وصلاة الله عليه ﷺ زيادة تشريف وإكرام وإفضال وإنعام.

وقوله: (على سر الوجود) سر الشيء: لبه وخالصه وأصله، ولا شك أنه ﷺ هو لب العالم وأصله وخالصه. والمقصود منه: لولاه ما وجد شيء أصلاً لبقاء العالم في العدم. كما قال البصيري:

لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

قوله (محمد) هو بدل من قوله سر الوجود، أو عطف بيان كما هو شأن الصفة إذا تقدمت على الموصوف، فإنها تعرب بحسب العوامل، ويعرب الموصوف بدلاً أو عطف بيان، ومحمد هو أشهر أسمائه ﷺ في الأرض، وسمّاه الله بهذا الاسم في القرآن أربع مرات في العمران ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ الخ. وفي الأحزاب ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ وفي القتال ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ الآية. وفي الفتح ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ الآية. وسمّاه به جده عبد المطلب في سابع ولادته، فقيل له: ولم سميته بهذا الاسم، وليس هو من أسماء آبائك وأجدادك؟ فقال: رجوت أن يحمد في السماء والأرض. فحقق الله رجاءه وهو متفعل من اسم مفعول حَمْدِ، المقصد مبالغة في اتصافه ﷺ بكل ما يقتضي الحمد ويوجبه.

وقوله (أكرم واف بالعهود) صفة لما قبله. ولاشك أنه ﷺ أكرم وافٍ من المخلوقات بالعهود التي عهدها الله إليه. والعهود التي عهدها هو إلى أصحابه وأمته، فلا أوفى منه ﷺ بالعهود إلا المولى جلت قدرته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ اللَّهِ﴾.

ولما صلى عليه ﷺ أداء لبعض ما وجب عليه من حقه. ثنّى بالصلاة على آله من بعدهم فقال:

وآلِـهِ والصحْـبِ والأتْبـاعِ وكـلِّ قطـبٍ للـرَّشـادِ داعِ

(آله) ﷺ: رهطه الأدنون وعشيرته الأقربون، والصحيح أن المراد بالآل في مقام الدعاء. كما هنا كل من آمن به واتبع سنّته لقوله ﷺ [آل محمد كل

تقي]. كذا نقل عن الإمام مالك والأزهري ورجّحه الإمام النووي في شرح مسلم.

وفي دلائل الخيرات للجزولي رحمه الله ما نصه «قيل لرسول الله ﷺ: مَنْ آل محمد الذي أمرنا بحبهم وإكرامهم والبرور بهم؟ فقال: [أهل الصفا والوفاء من آمن بي وأخلص] فقيل له: وما علامتهم؟ فقال: [إيثار محبتي على كل محبوب، واشتغال الباطن بذكري بعد ذكر الله] وفي أخرى علامتهم [إدمان ذكري والإكثار من الصلاة عليَّ]. اهـ منه بلفظه. فهذا الجواب منه ﷺ أوضح في الأدلة على أن المراد بالآل في مقام الدعاء هو الأتباع، كما اختاره الإمام مالك ورجحه النووي.

وعلى هذا ينبغي لمن صلّى على النبيّ ﷺ أن ينوي بالآل كل من اتبعه ﷺ في أقواله وأفعاله، ليدخل في ذلك العلماء العاملون والأولياء الصالحون، بل ربما دخل في ذلك الملائكة وجميع الأنبياء، إذ كل مؤمن ومصدق به ﷺ. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فإذا صلّى الإنسان بذلك، فإنه يكون قد صلّى بصلاة واحدة مختصرة على جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين وجميع عباد الله الصالحين، فيتضاعف أجره، ويكثر ثوابه إن شاء الله، والله ذو الفضل العظيم.

وأصل (آل) أهل، بدليل تصغيره على أهيل، ثم أبدلت من الهاء همزة ساكنة فقيل: الآل، ثم قلبت الهمزة ألفاً لسكونها وانفتاح ما قبلها فصار ءال.

قال في الألفية: ومدا أبدل ثاني الهمزين من كلمة أن يسكن كآثر أو تؤمن.

وقال الكسائي: أصل آل أول، وحكي في تصغيره أويل، والأوّل أشهر، ولا يضاف إلا إلى ظاهر ذي شرف، فقد يضاف إلى المضمر. قال عبد المطلب:

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

فأضافه إلى كاف الخطاب، وهو ضمير هنا.

وقوله (والصحب) جامع صاحب ، ويجمع على أصحاب وصحاب ، قال الإمام الخولي:

واختلف في الصاحب له ﷺ. قال أبو المظفر السمعاني: أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابي على كل من روى عنه حديثاً أو كلمة ، ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية فهو من الصحابة. وقيل: الصحابي: من طالت صحبته للنبي ﷺ ، وكثرت مجالسته على طريق التبع له والأخذ عنه. قال أبو المظفر: وهذا طريق الأصوليين ، وقبض ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من روى عنه وسمع منه. ا هـ بلفظه.

وقوله (والأتباع) جمع تابع أي سنته ﷺ.

وقوله (وكل قطب للرشاد داع). القطب: واحد الأقطاب ، وهو على ما ذكره الشيخ العارف سيدي عبد العزيز الدباغ ، سبعة ، أربعة على مذهب الإمام مالك إمام دار الهجرة ، وثلاثة من المذاهب الثلاثة ، من كل واحد واحد. وعطْفُ (الصحب والأتباع وكل قطب) على الآل من عطف الخاص على العام ، باعتبار الصحب وكل قطب من عطف المرادف باتباع الأتباع بحسب التفسير السابق في الأول والاتباع والأولى تفسير الاتباع فإنهم جمع تابع ، وهو من لقي الصحابي ليلا يلزم الترادف الممنوع. وأما عطف الخاص على العام فهو شائع إذا وجدت نكتة تقتضي ذكره كقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾.

وقوله (للرشاد داع) وهو كاشف لما قبله ، إذ كل قطب هذا شأنه وديدنته وعادته. ثم قال:

وبعْـدُ إنَّ المرءَ ليس يشـرُفُ ... إلا بـإحكـامِ الـذي سيوصَـفُ

مـن التجنُّـبِ لكُـلِّ قـاطـعْ ... والارتـدا لكـلِّ أمْـرٍ جـامِـعْ

قوله (وبعد) هي كلمة يؤتى بها للفصل بين الكلام السابق واللاحق ، وللانتقال من أسلوب إلى آخر ، فإن كان الانتقال لمناسبة تامة بين الأسلوبين

سمي تخلصاً وإلا سمّي اقتضاباً ، وإن وجدت مناسبة في الجملة سمّي اقتضاباً شبيهاً بالتخلص كما هنا. وقد يأتي بها ﷺ في خطبه ورسائله.

قيل: وهي فصل الخطاب الذي أوتيه داوود عليه السلام، لحذف ما أضيفت إليه ، ونية معناها الذي هو التقييد الحاصل المضاف بالمضاف إليه ، والكلام عليه طويل ، وقد أُفردت بالتآليف على حدتها. فلا حاجة تدعو إليه هنا.

وقوله (إن المرء) الخ. يريد أن الإنسان لا يحصل له الشرف إلا باتقان ما سيذكر في البيت الآتي علماً وعملاً من المجانبة لكل قاطع من القواطع الآتية وتحليته وارتدائه بما يقتضيه كل أصل جامع لأنواع الخيرات من الأصول الذي ذكرها إن شاء الله تعالى.

فقوله (من التجنب) الخ. أي بيان الموصول قبله. ثم قال:

وقـد نظَمْـتُ مـا أفـادَ شيخُنـا　　　مـن أمّهـاتٍ وسَـوالـبِ المنـى

لما ذكر أن الإنسان لا يشرف إلا باجتناب القواطع والسوالب ، والعمل بما اشتملت عليه أصول الطريق وأمهاتها من العزائم والرغائب ، استشعر سؤال سائل ، ما هو القواطع والسوالب التي يحصل الشرف باجتنابها ، وما هي الأصول والأمهات التي يشرف المرء باكتسابها؟ فأشار إلى جوابه بقوله: (وقد نظمت ما أفاد شيخنا).

وقوله (من أمهات) بيان لِمَا ، وفيه حذف الواو مع ما عطفت من أمهات وأصول وسوالب وقواطع على حد قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وإنما حذف الأصول والقواطع اعتماداً على ذكرهما فيما سبق من قوله (نظم أصول وقواطع لنا). كما أنه حذف الأمهات والسوالب تمّت اعتماداً على ذكرهما هنا ، ففي البيت الأول حذف (الواو) مع (ما) عطفت أيضاً:

(والمنى) جمع مُنْية: وهي ما يتمنى الإنسان حصوله رغبة فيه.

ثم ذكر السبب الحامل له على نظم ما ذكر فقال:

إذْ طالَ مـا بـالـغَ فـي تفصيلِهـا　　　فعنـدَ ذا شـرعْـتُ فـي تَحصْيلهـا

الضمير المستتر في (بالغ) عائد على الشيخ رضي الله عنه. يريد أن الحامل لي على النظم، هو كثرة مبالغة الشيخ في تفصيل ما ذكر. إذ طول المبالغة في تفصيل الشيء وبيان فروعه، يدل على الاعتناء به والرغبة في تحصيله لكل متعلم. وقد كان رضي الله عنه يحضّ على تحصيلها والعمل بمقتضاها، ويأمر بتكريرها على الذهن لكي ترسخ فيه وتثبت، ويقول لنا: عليكم بحفظها حتى لا يبقى فيكم بدعة ولا مخادعة نفس، وبقي في تقريره لنا قريباً من الشهور، كل ذلك مبالغة منه رضي الله عنه في تحصيلها وتعلمها وتعليمها، وكان كلما ابتدأ في تقريرها افتتح بهذه الجملِ وهي: اعلم أن أصل كل خير وينبوعه متابعةُ الحق ومجانبة الباطل، وإن الاعتناء بالأصول، يوقف على الطائل والمحصول، وإن اجتناب القاطعات، يفضي إلى السلامة والنجاة، وإن اجتناب السوالب الخمس، يقرّب من حضرة القدس، وإن العمل بالأمهات، يوصل إلى الأحوال والمقامات، ثم يشرع في التقرير رضي الله عنه، ونفعنا به آمين. فما أنصحه لعباد الله، فجزاه الله عنهم أحسن الجزاء.

ثم قال:

سمَّيْتها رسالةُ المريدُ فيها له من كلِّ ما يُفيدُ

إنما سميت بهذا الاسم لأني سمعت الشيخ يعبر عنها برسالة، وكان يشير إلي أن أسمّيها بذلك، لأن الكتاب إذا لم يسمّ هو ولا مؤلفه بقي مجهولاً، لا يدري كيف يعبر عنه.

وقوله (فيها) يريد أن هذه الرسالة فيها للمريد السالك كل شيء مفيد يناسبه ويليق به في طريقه، فلفظة (من) زائدة في الإثبات على مذهب الأخفش. و(ما) نكرة موصوفة لمفيد. ثم قال:

فقلتُ طالباً من الرَّحْمنِ عَوْناً وتبليغاً إلى الإحْسانِ

قوله (فقلت) معطوف على (شرعت) وما بينهما معترض لبيان الاسم. و(طالباً) حال من التاء. و(الرحمن) من أسمائه تعالى الحسنى، أي فقلت حال كوني راغباً من الرحمن أن يعينني على ما شرعت فيه، ويبلغني إلى مقام

الإحسان، وهو أشرف المقامات، إذ هو مقام المشاهدة والمراقبة، كما قال ﷺ جواباً لجبريل عليه السلام [الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك]. وسُئل ابن عطاء الله: ما أفضل الطاعات؟ فقال: مراقبة الحق على دوام الأوقات. وسيأتي الكلام على المراقبة في محله إن شاء الله تعالى. ثم قال:

قواطعُ المريدِ فاعْلَم عشرَة رؤيتُه أعمالَه معتبرة

(القواطع) جمع قاطع وهو ما يقطع المريد عن مراده، وأضيفت للمريد لاختصاصها به إذ غيره لا يخلو إما أن يكون ارتقى عن درجات الإرادة إلى درجة المشيخة والتربية والولاية، وهذا قاطع لها في الغالب. إذ الأولياء محفوظون بحفظ الله ورعايته، وإما أن يكون غافلاً عن الله، لا همة له في الرحيل إليه وإرادته، فهو منهمك في حظوظ نفسه وشهواتها، وليس له همّة إلا في تحصيل غرضها ونيل حظها، فهذا لم يتوجه إلى الطريق فضلاً عن المسير فيه، فأنّى يكون له قاطع وهو مقيم في منزل غفلته، معتكف على حظه وشهوته. فثبت اختصاص القواطع بالمريد لما ذكرنا.

وقواطع المريد عشرة: مبتدأ وخبر وجملة، فـ(اعلم) اعتراض أوتي به حثاً على تعلم هذه القواطع، كي يتقيها المريد، والأصل في هذا حديث حذيفة رضي الله عنه، فإنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه.

وتقدّم القواطع على الأصول من باب تقديم التخلية على التحلية، وأيضاً فإن اجتنابِ المناهي أهم وأكمل من امتثال الأوامر، ولذلك قال الأصوليون: وإذا تعارض الأمر بالشيء والنهي عنه. قدم النهي كحديث [اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا] وحديث [لا وتران في ليلة]. ولم يتضح لي وجه تقديمها على السوالب، فإليك النظر فيه، وبعدما كتبت هذا رأيت الشيخ وجهه، فقال: وجهه أن المقطوع لا يمكنه تدارك السير في الطريق لفقد آلته أي أطرافه، فهو كَلا ميت ولا حي، بخلاف المسلوب، فإنه سائر لكن بغير زاد

ولا راحلة تشبيهاً لها بمن قطعت أطرافه ولمن سلب من راحلته وزاده ، فالقواطع أبلغ والله أعلم ، ودليل ذلك ما ذكره الشيخ زروق أن من ادعى حالاً مع الله تعالى وكانت فيه إحدى أمور خمسة فهو مسلوب الخ. اهـ. كلامه رضي الله عنه. وهو جيد غاية.

ثم شرع في تعداد القواطع فقال: (رؤيته أعماله معتبرة) يريد أن أول القواطع رؤية الإنسان أعماله معتبرة عند الله ، وقد لا تزن في الواقع عند الله جناح بعوضة ، بل ربما استحق به الطرد والبعد من الله ، وهو لا يشعر ، لما اشتملت عليه من سوء الأدب مع الله تعالى.

وإنما كانت رؤية الأعمال من القواطع لأنه ينشأ عنها العجب وهو محيط للعمل وقاطع للمريد عن بلوغ الأمل. وفي الحديث [ثلاثة مهلكات: شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه] ولا يعجب بنفسه إلا لرؤية أعماله الطاردة عنها ، وإعجابه بها ، وقد ضرب الإمام حجة الإسلام الغزالي في كتابه (منهاج العابدين) مثلاً للمعجب بعمله فقال ما معناه: إن مثل العابد المعجب بعمله مثل سوقي سمع بأن السلطان أذن لوزرائه وأكابر دولته بأن يهدوا له هدايا ، كل على قدر وسعه وطاقته ، فأخذ كل منهم في تهيئة هديته ، وبالغ فيها على قدر طاقته وقدرته ، ثم أنهم دخلوا بهداياهم مشتملة على نفائس لا تدخل تحت حصر ، ولا يحيط بها الفكر ، فقام هذا السوقي ، واستصحب سلة تين أوعنب ، ودخل وسطهم ، وأهدى السلطان تلك السلة بين هداياهم ، وكان ذاك السلطان حليماً كريماً ، فقبل هديته ولم يعاقبه على سوء أدبه وإزرائه بمرتبته ، بل أثابه عليها بما تيسر ، فخرج هذا وصار يعجب بهديته ، ويقول: هديت للسلطان كذا وكذا يفتخر بهديته ، ويمن على السلطان بما أهداه ، ليس يقال في حقه أنه ناقص العقل خسيس الهمة ويضحك الناس منه ، إذ لا حاجة للسلطان فيما أهداه إليه ولا التفات إليه خصوصاً مع تلك الهدايا المعتبرة المشتملة على النفائس ، ولولا حلم هذا السلطان لعوقب بأشد عقاب ، وأغلقت دونه الأبواب.

فهكذا المعجب بعمله ، فإذا حصل للعامل العجب فليكفي بما أهدى إلى الله من الأعمال الصالحات من أناس طهرت ظواهرهم وبواطنهم من جميع العيوب ، فصدرت عباداتهم من ألسن طاهرة ، وقلوب خاشعة ، وعيون باكية ، وهم لا يحصون كثرة في الخلوات والجلوات والجبال والفلوات ، فلينظر الإنسان إلى عبادته الصادرة من جوارحه الملوثة أمل ورؤوس بأنواع المعاصي والغفلات ، في جنب عبادة هؤلاء السادات ، فيرى حينئذ العقوبة أقرب إليه من الإثابة ، ويرى عمله عديماً في جنب معاملتهم ، فيفزع إلى التوبة والإنابة . اهـ بمعناه. وأشار إلى الثاني بقوله :

كـذا امتـدادُ أمـلٍ تحـدِّثُ نفسُــه أنَّــه ولــيٌّ وارثُ

(كذا امتداد أمل) يريد أن الثاني من القواطع لطريق الحق امتداد الأمل ، لأنه تنشأ عنه أمور قبيحة كقسوة القلب والغفلة والانهماك في جمع حطام الدنيا ، وكل ذلك قاطع عن الله: قال تعالى : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ . وينشأ عنه نسيان الآخرة حتى يرى المتصف به أنها في غاية البعد منه ، وهي في الحقيقة أقرب إليه من كل قريب ، إذ ما بينها وبينه إلا ساعة من الزمان ، مقدار ذراع أو أقل من المكان. قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ﴾ . وقال ﷺ : [القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار] وورد [القبر أول منزل من منازل الآخرة]. وقال ﷺ [من مات قامت قيامته] وإذا كان كذلك فما بين الإنسان والآخرة إلا أن يموت ويقبر ، وقد وصل إليها ودخل في عالمها.

ولذلك قال ابن عطاء الله في الحِكَم «لو أشرق نور اليقين في القلب لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت الدنيا قد ظهرت كَسِفَة الفنا عليها». وصدق رحمه الله. إذاً لا يتصور الرحيل إلا بشيء بينك وبينه ساعة من الزمان ، ومقدار ذراع أو شبر من المكان ، وهذا المعنى بما فتح به الفتاح الرحمن ، ولم أره لغيره على هذا الوجه والحمد لله.

وينشأ عن امتداد الأمل أيضاً نسيان الموت ومصرعه ، ونسيانه سبب الإقبال

على اللذات والشهوات. وقد قال ﷺ [تذكروا هادم اللذات]. وصاحب طول الأمل يرى أن الموت بعيد منه، ولولا رؤيته لذلك ما طال أمله، والموت أقرب إليه من كل قريب. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «كل امرىء مصبح في أهله، والموت أدنى من شراك نعله».

ثم أشار إلى الثالث بقوله: (تحدث ــ نفسه أنه ولي وارث). أي أن تحدُث نفس المريد بأنه بلغ الولاية وحاز مرتبتها، وأنه ورث الولاية من شيخه أو غيره من الأولياء، قاطع له عن الله تعالى، إذا ينشق عنه الفتور عن العمل ورؤيته نفسه وإعجابه بعمله وكلها قواطع.

وكتب شيخنا على هذا المحل معللاً له ما نصه: وفي رواية عنه ﷺ [من قال أنا مؤمن حقاً فهو كافر أو منافق] كذا في مسند الفردوس للديلمي، ولقوله عليه الصلاة والسلام [من قال أنا عالم فهو جاهل، ومن قال أنا في الجنة فهو في النار] رواه الطبراني، وخرّج الديلمي: [من قال أنا مؤمن فهو كافر] اهـ. كلامه رضي الله عنه.

ثم أشار إلى الرابع والخامس بقوله:

قناعةٌ بـوارِدِ الأحـلامِ مَـعْ رَكـونِـه إلـى قبـولِ الخلْـقِ دَعْ

يعني أن المريد إذا قنع بما يراه من نومه من الكرامات، ويرد عليه من الواردات، كرؤيته للأنبياء والأولياء أو الحور العين، وأنه دخل الجنة، وجاز الصراط، وأنه دخل في ديوان، وحضر معهم، وتكلم بينهم أو كلموه بشيء يقتضي ولايته، ولم يجهد نفسه بكبحها عن المخالفات والزامها بالطاعات، بل تركها وهواها، اغترار واعتماد على ما رآه، فهو مقطوع عن الله، إذ ربما كان ذلك استدراجاً له ومكراً به، ورؤياه إنما هي أضغاث أحلام، وعلى فرض أنها رؤيا حق، لا ينبغي للمريد أن يقنع بها على امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، ومن أكبر القواطع للمريد، الركون إلى إقبال الخلق، فإذا كان المريد يركن إلى إقبال الخلق عليه، ويفرح بتوجيههم إليه، فهو مقطوع من حيث يظن الوصول، فلا ينبغي للمريد أن يركن إلا إلى إقبال مولاه، ومن

يوصله إلى حضرته ورضاه ، وأما إقبال الخلق فهو فتنة في حقه ، إن التفت إليهم ، واشتغل بما يرضيهم ، ورضاء الناس غاية لا تدرك ، وليس للقلب إلا وجهة واحدة ، فإذا أقبل على الخلق أعرض عن الحق ، والعكس بالعكس ، ومن أعرض عن الله لا يبالي الله في أي واد من أودية الضلال أهلكه.

وقال الشيخ محمد بن السماك في بعض مواعظه : من أعرض عن الله بكليته ، أعرض عنه الله جملة ، ومن أقبل على الله بقلبه ، أقبل الله برحمته إليه ، وأقبل بوجوه جميع الخلق إليه ، ومن مرة أو مرة فالله يرحم. وختاماً هذا هو سبب توبة معروف الكرخي رضي الله عنه.

وقوله (دع) جملة اعتراضية على قول السكاك فيها أمر للمريد بترك الخلق ولو أقبلوا عليه ، وتوجهه للمالك الحق ورغبته فيها لربه ، واستعمل القبول مكان الإقبال لضرورة الوزن.

ثم أشار إلى ثلاثة قواطع بقوله:

تـأنّـسْ بـالـورودِ مـعْ تلـذُّذِ   بـوارِدِ سكـونُـه الـوعْـدُ خُـذِ

يريد أن تأنس المريد بورده صلاة أو ذكراً أو غير ذلك قاطع له عن الله تعالى. ومعنى تأنسه به ، اعتماده عليه وفرحه به ، واعتقاده أنه يمنعه من عذاب الله ، حتى يزول خوفه بسببه ، ويظن أنه يدخل الجنة بورده لا برحمة ربه. وقد قال ﷺ [لن يدخل أحدكم الجنةِ بعمله] قيل: ولا أنت يا رسول الله. قال [ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته] أو كما قال ﷺ.

فلا ينبغي للمريد أن يعتمد على عمله ولو عمل ما عمل ، ومهما اعتمد على عمله وتأنس به كان مقطوعاً من الله تعالى ، والتأنس بالورد إنما كان قاطعاً باعتبار المعنى الذي ذكرناه ، لأنه ربما أوقع صاحبه في الأمن من مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ويحتمل أن يكون المراد بالتأنس فرح العامل والتذاذه بالحلاوة التي يجدها

في عمله ، وتلك إما أن تكون محمودة دالة على وجود قبول العمل ، ومبشرة لصاحبهِ بوجودِ الجزاء عليه آجلاً.

وهي توجد في أكثر الأعمال بالمواظبة عليها على حال تكرّه واستثقال. قال بعض العارفين: ليس شيء من البر إلا ودونه عقبة تحتاج إلى الصبر فيها. فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة ، وأما هي فمجاهدة النفس ، ثم مخالفة الهوى ، ثم مكابدته في ترك الدنيا ، ثم اللذة والتنعم. قال ابن عباد: وهذه الحلاوة وإنما تثمرها الأعمال الصالحات الصحيحة المستقيمة السالمة من الرياء والدعوى ، قال أبو تراب رضي الله عنه: إذا صدق العبد في العمل ، وجد حلاوته قبل أن يعمل مباشرة العمل ، وعلامة هذه الحلاوة المحمودة أن يجد مرارة وألماً في المعصية إن وقع فيها بتقدير الله لها عليه ، فوجد أن المرارة والألم في المعصيةِ دليل على صحة ما وجد من الحلاوة ، وإذا أخلص وجد حلاوته قبل ، والدالة على قبول العمل والجزاء عليه قال معناه والنعيم في الطاعة ، فهذه هي الحلاوة-ابن عباد رضي الله عنه. وأما أن تكون غير محمودة ، وهي التي فقدت منها العلامة المذكورة سابقاً ، فهي حلاوة معلومة لا عبرة بها إلا من حيث أن فيها تنشيطاً للعباد إلى مواظبة العبادة.

قال سيدي ابن عباد رضي الله عنه: والحلاوة على الإطلاق إذا وجدها العامل في العمل لا ينبغي له أن يقف معها ولا يفرح بها أو يسكن إليها ، وكذلك أيضاً لا ينبغي له أن يقصد بعمله إلى نيلها لما له فيها من اللذة ، فإن ذلك مما يعدم في إخلاص عبادته وصدق إرادته ، وليكن اعتناؤه بحصولها لتكون ميزاناً لأعماله ومحكاً لأحواله فقط.

قال الواسطي رضي الله عنه: استحلاء الطاعة سموم قاتلة ، قال في لطائف المتن ، وصدق الواسطي رضي الله عنه ، وأقل مافي ذلك أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائماً فيها متطلباً لحلاوتها ، فيفوتك صدق الإخلاص في نهوضك ، وتحب أداءها لا قياماً بالوفاء لكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة ، فتكون في الظاهر قائماً لله ، وفي البطان إنما قمت لحظٍ نفسك ،

ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة حلاوة تتعجله في الدنيا ، فتأتي يوم القيامة ولا أجر لك. ا هـ. كلامه رحمه الله في غاية الحسن والمناسبة بهذا المحل.

وقوله (مع تلذذ) أشار به إلى سابع القواطع ، وهو التلذذ بالوارد. قال ابن عباد رحمه الله تعالى: الوارد هو الذي يرد على باطن العبد من لطائف وأنوار ينشرح بها صدره ، ويستنير بها قلبه. وإنما كان التلذذ بالوارد قاطعاً ، لأن التلذذ به ربما اشتغل عن الورد المطلوب منه المواظبة عليه ، والاشتغال بالورد أحق ما يعتني به العبد ويراعيه من الوارد ، لأن الوِرْد حق الحقّ منك ، والوارد حقك منه ، وقيامك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلب حظوظك ووقوفك معها. وأيضاً ما يختص بهذه الدار لا يقع إلا فيها وينقطع بانقطاعها ، فينبغي للعبد أن يستكثر منه قبل وفاته ، إذ لم يمكن خلف ما فات منه ، بخلاف الوارد فإنه كما يوجد في هذه الدار يوجد في الدار الآخرة ، وإلى هذا أشار ابن عطاء الله رضي الله عنه في الحكم: لا يحتقرن الورد إلا جهول ، الوارد يوجد في الدار الآخرة ، والورد ينطوي بانطواء هذه الدار ، واولى ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده ، الورد هو طالبه منك ، والوارد تطلبه منه ، وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه. ا هـ.

وأيضاً التلذذ بالوارد يفضي إلى طلب بقائه والاستيحاش من فقده الذي هو دليل على عدم الوصول إلى الله ، إذ من وصل إليه لا يطلب غيره أياً كان ، ولا يستوحش من فقد شيء من الأكوان. قال ابن عطاء في الحكم لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها ، وأودعت أسرارها ، فلك في الله غنى عن كل شيء ، وليس يغنيك عنه شيء ، وقال أيضاً: إياك أن تلاحظ مخلوقاً وأنت تجد إلى ملاحقة الحق سبيلاً. قال ابن عباد: ويدخل في هذا المعنى الذي ذكره ابن عطاء الله جميع الاغيار والأنوار والمقامات والأحوال والدنيا والآخرة والنعم الظاهرة والباطنة ، فلا تلاحظ شيئاً من ذلك ، ولا تركن إليه ، ولا تعتمد عليه ، بقي أو ذهب ، فإن ذلك قادح في إخلاص التوحيد ا هـ.

قال في التنوير: واعلم أن الباري سبحانه، إنما يدخلك الجنة في الحال لتأخذ منها لا لتأخذ منك، وإنما جاءت تحمل هدية التعريف من الله إليك، فتوجه إليك باسمه المبدىء فأبداها لك، حتى إذا وصلت إليك ما كان فيها وأدّت الأمانة، توجه إليها باسمه المعيد فارتجعها وتوفيها. فلا تطلبن بقاء رسول بعد أن بلغت رسالته، ولا أمين بعد أن بلغت أمانته. الخ كلامه رحمه الله، وهذا في غاية الحسن.

وقوله (سكونه الوعد خذِ) قوله: خذ. فعل أمر، وسكونه مفعول به مقدم، والوعد منصوب على نزع الخافض، وهو سماعي في مثل هذا. أي خذ سكون المريد إلى الوعد، واضممه إلى ما تقدم من القواطع. والمراد ما قابل الوعيد، والمعنى أن السكون إلى وعد الله قاطع من القواطع المذكورة، وإنما كان قاطعاً لما ينشق عنه من الفتور عن العمل وعدم النهوض إلى الطاعة اعتماداً على ما وعد الله تعالى به المؤمنين من دخول الجنة وعدم الخلود في النار وتفكير ما سوى الشرك لمن شاء ورجاء لرحمته التي وسعت كل شيء. وهذا الرجاء الكاذب وهو الذي يفتر صاحبه عن العمل ويجريه على أفعال المعاصي والزلل، وليس هو برجاء، وإنما هو أمنية، والرجاء الحقيقي ما قارنه العمل، لأن من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه. وإلى هذا المعنى أشار ابن عطاء الله رضي الله عنه بقوله: الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية، فانظر كيف اعتبر في حقيقة الرجا مقارنة العمل، وفي العمل وفي الأمنية الحق والتجرد عن العمل، فمن سكن إلى وعد الله ونسي وعيده وسوف الطاعة وانهمك في المعصية، فهو ذو أمنية واغترار بالله تعالى، قال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: وقد ذم الله أقواماً ظنوا مثل هذا وأصروا على حب الدنيا، والرضا بها. وتمنوا المغفرة مع ذلك وسماهم الله خلفاً، والخلف: الرديء من الناس. فقال عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ﴾ الآية.

وقال معروف الكرخي: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء

الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، ورجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق.

وقد قالوا: من زعم أن الرجاء مع الإصداف صحيح فليزعم أن طلب الربح في الفقر ، وقدح النار في البحر صحيح ، وقال ﷺ: [الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز الأحمق من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني] اهـ. فالرجاء الحقيقي من عمل الأكياس ، والرجاء الكاذب المسمى بالأمنية من العاجزين أصحاب الإفلاس ، كما يؤخذ من الحديث الشريف.

وقال الحسن رضي الله عنه: إن قوماً ألهتهم أمانيِ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنة. يقول: أحسن الظن بالله وكذب ، لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل. وتلا قوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ . اهـ.

فتبين من هذا كله ، أن السكون إلى وعد الله بالمغفرة لمن لم يشرك ، لقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وقوله ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ وقوله: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية. دون الوعيد كقوله ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ . ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا ﴾ الخ ، قاطع من القواطع عن الوصول إلى رضاء الله تعالى. إذ المطلوب من العبد أن يكون خائفاً راجياً ، لا يميل إلى أحد الجهتين دون الأخرى ، ولا يسكن ، وإن كان ولابد فليمل إلى جهة الخوف وقت صحته ، وإلى الرجاء وقت احتضاره وسكرته ، أما ميله وسكونه إلى جهة الرجاء دون الخوف حال الصحة فلا قائل به من أهل السنّة فيما علمت ، لأنه يؤدي إلى نبذ التكاليف الشرعية التي أرسلت بها الرسل ، ووضحت بها السبل.

ثم أشار إلى التاسعة بقوله:

والاكتفاء بزعمه والغرّة بالله تحت هذه العشيرة

يريد أن الاكتفاء المريد بزعمه ، أي ظنه ، أو رئاسته وسيادته وشرفه على الدخول تحت نظر شيخ مرشد أو أخ ناصر قاطع له عن الله تباركَ وتعالى ، من

حيث أن فيه اعتماده على عقله وحدسه ورضاه بفعل نفسه، فيكون متصفاً بالرعونة وسوء الأدب، إذ النفس محمولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب. فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها ولم يجاهدها فهو شريكها في فسادها، ولا تتأتى له مجاهدتها ورياضتها إلا باجراء أفعاله على مراد غيره. قال ابن عباد رحمه الله تعالى: المريد إن لم يجر أفعاله على مراد غيره لم يصح له الانتقال عن الهوى ولو بلغ في الرياضة والمجاهدة كل مبلغ، وذلك لكثافة حجاب نفسه، وقال: سئل الدقاق رضي الله عنه بماذا يقوّم الرجل اعوجاجه؟ فقال: بالتأدب بإمام، فإن لم يتأدب بإمام بقي بطالاً. فإذا دام العبد على ذلك، أي بالتأدب بإمام ناصح، تزكت نفسه، وطهر قلبه، وتهذبت أخلاقه، وظهر على ظاهر أنوار ذلك، فيكون الحركات ظاهرة وباطنة مزمومة بزمام الأدب، حتى ينتهي به الأمر إلى المحافظة على تجنب أمور غير مستنكرة في ظاهر العلم، ويكون ترك محافظته عليها ذنباً من مثله، وقد يعاتب عليه ويعاقب من أجله. قال سري لعل السقَطي: صليت ليلة من الليالي ومددت رجلي، فنوديت: يا سري هكذا تجالس الملوك، فضممت رجلي ثم قلت: وعزتك لا مددت رجلي أبداً. قال الجنيدي رضي الله عنه فبقي ستين سنة ما مدَّ رجله ليلاً أو نهاراً. ا هـ. وفي هذه القدر كفاية.

وكنت لم أفهم معنى الزعم هنا، فسألت من شيخنا رضي الله عنه أن يكتب لي معناه لغة، وما المراد به هنا. فكتب لي ذلك. وها أنا أذكر عبارته بتمامها تبركاً بها في ذلك التقييد، وإيضاحاً لمعنى الزعم لغة واصطلاحاً. ونصها: الزعم مثلثة: القول الحق والباطل والكذب، ضد. وأكثر ما يقال فيما شك فيه الخ. والزعَم محركة: الطمع، والزعامة: شرف ورئاسة والسلاح والدرع الخ. زعمتني كذا: ظننتني الخ. قال بعض: الزعم هو القول بلا دليل، وقيل: هو ادعاء العلم. ومنه قوله ﷺ [زعموا مطية الكذب] رواه الزمخشري في كشافه، وبيّنه الطيبي بما يطول مع رواية أخرى [بئس مطية الرجل] لعله زعموا. وعن شريح: لكل شيء كنية وكنية الكذب زعمه الخ، وله معانٍ غير

هذا ، والمعنى الموجه في القاطع والله أعلم في قولهم الاكتفاء بالزعم الظن والطمع والرئاسة والسيادة والشرف والأمر المشكوك والادعاء من حيث هو من غير دليل. وقال بعضهم: إنما يقال: زعم في الأمر الذي لا سند له ولا ثبات فيه ، ومنه قول الشيخ نفعنا الله به في رسالة الرفاء عند قوله: يحرم على الناس إمامة الجاهل وإن كان سلطاناً. ومن رضي به مع وجود العارف الكامل غلب عليه أمر النفاق والبهتان الخ. ومن اكتفى بنفسه في زعمه دون تطهيرها من علتها بعد أن وجد من يستند إليه في ذلك بدلائله وشواهده وهي محبة أصحابه الخ. غلب عليه أمر النفاق الخ. اهـ باختصار لما يعلمه الله إلى هنا تمام ما كتبه لي رضي الله عنه آمين.

ثم أشار إلى العاشر بقوله (والغرّة بالله تمت هذه العشيرة) يعني أن الغرة بالله أي الاغترار بحلمه وعفوه وإمهاله وتأخيره العقوبة عن العاصين ، قاطع للمريد عن الله تعالى ، لأنه باغتراره يسترسل في المعاصي ، ويقول: إن الله حليم لا يؤاخذني بالمعاصي ، ولو كان يؤاخذني لما أمهلني مع عصياني ، وكم من واحد مقيم على المعاصي والله سبحانه مسبل ستره عليه ولم يعاقبه ، وما ذلك إلا بحلمه وعفوه ، فيغتر الأحمق مثلي بذلك الإمهال ، وينهمك في أنواع الطغيان والضلال ، وكأنه لم يقرع سمعه إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ الخ الآية. وقوله ﷺ [إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته].

وقد يكون الله عاجله بالعقوبة ولم يشعر بها ، وذلك لأن العقوبة لها أنواع مختلفة ، فمنها معجّلة ومنها مؤجلة ، ومنها جلية ومنها خفية ، فالعقوبة الجلية بالعذاب والعقوبة الخفية بوجود الحجاب.

فالعقوبة بالعذاب لأهل الخطايا والذنوب ، والعقوبة بالحجاب لأهل إساءة الآداب بين يدي علام الغيوب ، وقد تكون العقوبة الخفية والمؤجلة أشدّ على المريد من العقوبة الجلية والمعجلة. ومثال الخفية: أن يقطع الله المدد عنه ، وأن يقيمه مقام البعد منه. قال معناه ابن عباد رضي الله عنه: عند قول صاحب

الحكم من جهْل المريد أن يسيىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه ، فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الامداد ووجب الإبعاد ، فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن إلا منع المريد ، وقد يقام مقام العبد من حيث لا يدري ولو لم يكن إلا أن يخليه وما يراد به. اهـ. ما ضمنه رحمه الله وأشار إليه في هذه الحكمة هو معنى الغرة بالله فافهم ، وهو مفسر لها على أتم وجه وأوضح تقرير فجازاه الله عنا خيراً.

وقوله (تمت هذه العشيرة) إخبار قصد به تكميل البيت.

ولما أنهى الكلام على القواطع شرع في السوالب الخمس فقال:

وصِفْ لها خمساً سوالباً أتت إرساله جوارحاً قد أودعت
لدَى معاصي الله والتصنّع بطاعة الله لخلق يمنعُ

وقوله (وصف لها) أي للقواطع ، وإنما أضافها إليها لأنهما من باب واحد ، إذ كل من اتصف بواحد منهما أو أكثر فهو مقطوع عن الله تعالى ، وإنما سميت هذه الخمس سوالب ، أخْذ من قول الشيخ العارف بالله تعالى سيدي أحمد زرّوق البرنوسي رضي الله عنه: كل من ادعى حالاً مع الله تعالى ، ثم ظهرت فيه إحدى خمس فهو كذَّاب أو مسلوب ، إرسال الجوارح في معاصي الله ، والتصنع بطاعة الله ، والطمع في خلق الله ، والوقيعة في أهل الله ، وعدم احترام المسلمين على أمر الله.

قوله في النظم (إرساله جوارحاً قد أودعت) الخ. هذا هو الأول من السوالب الخمس ، وقوله (قد أودعت) يعني أن جوارح الإنسان من سمع وبصر وغيرهما وديعة عنده أودعه الله إياها ، وأمره بحفظها من المعاصي ، فإذا حفظها كان أميناً وإلا فهو خائن قد سلب عنه وصف الأمانة. وقوله (لدى معاصي الله) لدى: بمعنى في وهو متعلق بإرسال ، والثاني من السوالب أشار إليه بقوله والتصنع الخ ، وإنما كان سالباً لأن المتصف به مرائداً معرضاً من الحق بالخلق ، وهذا عين الشرك الخفي والسلب والعياذ به.

وقوله (والتصنع) مبتدأ، وجملة يمنع خبره، واللاّم من قوله لخلق، متعلق بالتصنع، ومعنى البيتين واضح لا غبار عليه.

ثم أشار إلى بقية السوالب فقال:

مثْلهمـا طمعُـه فـي الخَلْـقِ وقيعـةٌ فـي عَـرْض أهْـلِ الحـقِّ

وعـدَمُ احْتـرامِـه للمسلميـنْ علـى الـذي أمـرَ ربُّ العـالميـنْ

قوله (مثلهما) الضمير فيه يعود على إرسال الجوارح في المعاصي والتصنع بالطاعة المذكورة من قبل، وإنما كان الطمع في الخلق من السوالب، لأن الطامع في الخلق ناظر إليهم ومقبل عليهم ومستند إليهم. وهذا وصف من أعرض عن الله بإقباله على غيره، مع ما يصحب الطمع من العلل المذمومة، وهيهات أن يطمع العبد في الوصول إلى الله ما دام موصوفاً بالطمع في الخلق، فالطمع في الخلق يسلب المريد وصف الوصول إلى الملك الحق، وإنما كانت الوقيعة في أهل الحق، وهم أهل الله، سالبة لأن من وقع في أهل الله فقد آذاهم، ومن آذاهم فقد حارب الله ورسوله، ومن حارب الله ورسوله فقد باء بغضب من الله ورسوله. والمغضوب عليه بعيد من الوصول إلى الله. قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ [من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب]. وإنما كان عدم احترام المسلمين سالباً أيضاً، لأن حرمتهم واجبة، لأن الله ورسوله ﷺ عظّما حرمتهم. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾وقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وقال ﷺ [كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه]. فوجب احترامهم بحرمة الله ورسوله، ومن أهانهم فقد أهان ما عظّم الله ورسوله، والفاعل لذلك بعيد من الله ورسوله، ومسلوب عن التقرب والوصول إلى الله. والله أعلم.

ولما فرغ من الأمور التي يطلب منها التخلّي، شرع فيما يطلب به التحلّي وهو أمهات الطريق وأصوله فقال:

وأمهـاتٌ عشْـرُ قـد تقـررَّتْ   إن حَليـتْ نفـسٌ بهـا تطهَّـرَتْ

يريد أن أمهات الطريق الذي يبني عليها المريد أموره على ما ذكره الشيخ زروق رضي الله عنه ، فأي نفس حليت بها تطهرت من جميع العيوب ، وصلحت لدخول حضرة علاّم الغيوب. وإنما كانت هذه الأمور العشرة الآتي ذكرها أمهات ، لأن كل خير يتفرع عنها ، وكل واحد منها أمّ وأصل لخيرات لا تحصى ، فلا جرم أنها سميت أمهات الطريق.

ثم أشار إلى الأول منها فقال:

لـزومُـك التَّقـوى بفعـل مـا أمَـرْ   بـهِ وتـرْكُ كـلِّ مـا عنـه زجَـرْ

يريد أن أول الأمهات هو التزام التقوى بحفظ الواجبات وترك المحرمات ، من غير إفراط ولا تفريط ، ولاشك في كون التقوى أماً لكل خير دنيا وأخرى. لأنها زاد الآخرة ، وكافلة لمن تمسك بها سعادة الدارين ، لأنها عبارة عن امتثال الأوامر واجتناب النواهي وتكاليفها الشرع ، وتخرج عن ذلك ، ولذا أوصى بها الله تعالى الأولين والآخرين فقال ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾. وأمر الله تعالى عباده في مواقع متعددة. فهي أصل الأصول وأم الأمهات ، ولا أجمع منها لفنون الخيرات.

وأصل التقوى: وِقي بكسر أوله.. وقد يفتح من الوقاية ، قلبت الواو تاء كتراث ، ثم أبدلت الياء واواً. والوقاية: ما يستر الراس ، فالمتقي جعل بينه وبين المعاصي وقاية تحول بينه وبينها من قوة عزمه على تركها واستحضار علمه بقبحها. فهي أحسن ما يتزود به العبد لمعاده. قال تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وأنشد بعضهم:

إذا أنتَ لم ترحَلْ بزادٍ من التُّقىٰ   ولاقيتَ بعد الموتِ من قد تزوَّدا
نـدِمْـتَ على أن لا تكـونَ كمثلِـه   وأنَّـك لم تـرْصدْ كمـا كـانَ أرصدا

وقال بعضهم: وينبغي للمريد أن يحرص على تحقيق ما يحتاج إليه منها ، وهو النوع الذي يعتريه كثيراً ، كالغيبة عموماً والحسد خصوصاً ، ونحو ذلك.

ويكون حرصه على الصدق مع الله فيها بأن يغتم مما لا يفيد الناس كالغيبة أكثر مما يعيبونه كشرب الخمر والزنا مثلاً. لأن الأول لا يحمله على تركه إلا الله، بخلاف الأخير فإن فيه شائبة، وإن كان من حق الله أيضاً ومساوياً للآخر في حكمه، فالنفس تأباه لما يلحق من أجله، فيكون معاناً على تركه.

ثم أشار إلى ثاني الأمهات بقوله:

وهكذا العَمَلُ بالأسْبابِ — التي يكْمُل لذوي الآدابِ
بها التّقى ويُسْتَدامُ واعْددا — تيقُّظ القلبِ بما قد ورَدا

يعني أن ثاني الأمهات هو العمل بالأسباب التي تكمل بها التقوى وتستدام، وذلك مثل الاعتدال عن الخلق والخلوة والصمت والصوم وكفّ النفس على شهواتها وحظوظها المباحة، فإن هذه كلها أسباب لكمال التقوى واستدامتها لذوي الألباب. ومن الأسباب ترك الشبه الواضحة التي لا تدع إليها ضرورة ملجئة، فقد قالوا: لا يبلغ الرجل درجة التقوى حتى يترك ما حاك في الصدر. ومن تعمد في الأمور قلّ أن يثبت له قدم، لكن ما وضح كونه لشبهة ترك، وما خفي فعند الاستغناء عنه، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه وإن كانوا يتركون بينهم وبين الحرام وقاية من الحلال، ومن عزَّ عليه دينه، سهل عليه كل شيء. قال عليه الصلاة والسلام: [الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ بدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه] الحديث.

ثم أشار إلى الثالث من الأمهات بقوله (واعددا/ تيقظ القلب بما قد وردا) الألف في قوله (واعددا) بدل من نون التوكيد الخفيفة. أي: واعددا من الأمهات تيقظ القلب لموارد الأمر ومصادرها. ولذلك بأن يجعل المريد قلبه عند جوارحه، فمهما أرادت جارحة من جوارحه التحرك طالبتها بحكم حركتها وقصدها، فإن الله يبغض الرجل الأمّعة، المشّاء بغير أرب، الضحّاك من غير

عجب ، الذي يكون مع كل قوم بما هم فيه. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: «ما سلم من النفاق عبد يعمل على الوفاق». وقال أيضاً: «أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله ، ولا تقطف لنفسك إلا من تزاد به يقيناً» وقيل ما هم.

وكما أن المريد مطالب بإيقاظ قلبه إلى ما ورد على جوارحه وصدره ، فهو مطالب أيضاً بإيقاظه إلى ما أريد به من الأحوال وأريد منه ، فليستيقظ إلى ما أُريد به ويقابله بما أريد منه لأجله. قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: أحوال العبد أربعة لا خامس لها ، النعمة والبلية والطاعة والمعصية. فإن كنت في النعمة فمقتضى الحق منك الشكر ، وإن كنت في البلية فمقتضىٰ الحق منك الصبر ، وإن كنت في الطاعة فمقتضىٰ الحق منك شهود المنّة منه عليك ، وإن كنت في المعصية فمقتضىٰ الحق منك وجود الاستغفار. اهـ.

قوله: فإن كنت في النعمة ، أي مراداً بها فمقتضىٰ الحق منك الشكر ، أي فمراده الحق منك الشكر ، فقابل ما أرادك به بما أراده منك ، ولا تكن من الغافلين ، وقدر هكذا في باقي الأحوال لتعرف ما أريد منك واعمل بمقتضاه. كذا كان يقرر شيخنا الأستاذ نفعنا الله به آمين.

ثم أشار إلى رابع الأمهات فقال:

ومثلُ ذا صحبَةُ من يدلُّكْ على الإلهِ ويُريكَ عيبَكْ

يريد أن رابع الأمهات هو صحبة شيخ صالح أو أخ ناصح من أهل المعرفة والعلم ، يبصرك بعيوبك ، ويدلك على ربّك. قال السيد عبد السلام رضي الله عنه: من دلّك على الدنيا فقد غشّك ، ومن دلّك على العمل فقد أتبعك ، ومن دلّك على الله فقد نصحك ، والذي يدلك على الله هو الذي يحضك على اللجوء إليه في المبادىء والشكر له في المناهي ، والرضا عنه في الواردات ، والصبر له في المكاره ، والتسليم له في الأقدار ، وإيثار حقه على كل شيء ، وفي كل شيء ، ومع كل شيء.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه

لئيم ، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قلَّ ما يدوم ، واصحب من إذا ذكر ، ذكر الله ، فالله يغني به إذا شهد ، وينوب عنه إذا فقد ، ذكره نور للقلوب ، ومشاهدته مفتاح الغيوب. ا هـ.

قال بعضهم: وعلامة الإعراض عن كل شيء سوى مولاه بحيث لا يبالي بالخلق في إقبال أو إدبار ، وإن كان يتأثر بهم ، فلا يرجع إليهم عند الحاجة ، ولا يعتب إليهم عند اللجاجة ، لوقوفه مع مولاه في كل أحواله. ا هـ.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وشروط الشيخ الذي يلقي إليه المريد نفسه خمسة: علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة ، قال الخروبي تفسيراً لهذه الخمسة شروط ، ما معناه:

أما شرط العلم فلأن الشيخ دليل فلابد للدليل من علم تصح به دلالته.

وأما شرط الذوق فإنه بالذوق تحقيق عبارته ، وتفهم إشارته ، فبعلمه يقتدون وبذوقه يهتدون ، وبعلمه تستقيم الظواهر في الأقوال والأفعال ، وبذوقه تتحقق البواطن في الأحوال ، وبعلمه تختبر ظواهر المريدين ، وبذوقه يختبر بواطن السالكين.

وأما اشتراط الهمة العالية فإنها تنقل همم المريدين إلى الله تعالى ، إذ همة المريد من همة شيخه.

وأما اشتراط الحالة المرضية ، أي مع الحق والخلق ، فلأنه يقتدى به فيها ، وإنما أمر المريد بملازمة شيخه ليقتدي به في الأحوال والأقوال والأفعال ، أي يمكن أن يقتدى به فيها ، وإن لم يلزمه.

وأما اشتراط البصيرة النافذة ، فلينظر بها بنور الله في أحوال تابعيه الباطنة ، إذ الشيخ مطالب بنظر ظاهر الفقير وباطنه ، ولا يتوصل إلى النظر في الباطن إلا بالبصيرة. اهـ. بمعناه.

وقال الشيخ زرّوق: ومن فيه خمسة لا تصح مشيخته وهي: الجهل بالدين ، وإسقاط حرمة المسلمين ، والدخول فيما لا يعني ، واتباع الهوى

في كل شيء، وسوء الخلق من غير مبالاة، وقال أيضاً: وأدب المريد مع الإخوان والشيخ خمسة وهي: اتباع الأمر وإن ظهر خلافه، واجتناب النهي وإن كان فيه حتفه، وحفظ حرمته حاضراً أو غائباً، حياً أو ميتاً، والقيام بحقوقه حسب الإمكان بلا تقصير، وعزل عقله وعلمه ورئاسته إلى ما يوافق ذلك من شيخه، ويستعين على ذلك بالانصاف والنصيحة وهي معاملة الإخوان إن لم يجد شيخاً مرشداً، وإن وجده ناقصاً عن شروطه الخمسة اعتماد بما كمل وعامله في الباقي بالإخوة اهـ.

ثم أشار إلى خامس الأمهات بقوله:

وجانبِ الأضْدادَ أهْلَ الغَفْلة   والاغترارَ هُمْ أشدُّ فِتْنة

يعني أن مجانبة المريد للأضداد وهم أهل الغفلة والاغترار، أي من أمهات الطريق وأصل من أصولها لأن مخالطة الأضداد فتنة كبيرة قل أن يسلم معها المريد، قال سهل رضي الله عنه: احذر صحبة ثلاثة أصناف من الناس: القُرّاء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين، والجبابرة الغافلين، قال بعضهم: من ابتلي بهؤلاء فليعامل الأولين بالتعظيم والإكرام، والمتوسطين بالتسليم والاحتشام، والآخرين بالحذر والاستسلام، مع خلوّ قلبه عنهم، وإلا هلك دينا ودنيا.

وقال في الحكم: لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله. وقال بعض المشايخ: الإخوان ثلاثة أخ لدينك فلا تراع فيه إلا الدين، وأخ لدنياك فلا تراع فيه إلا حسن خلقه، وأخ للأنس به فلا تراع فيه إلا السلامة من شرّه. اهـ.

ثم أشار إلى السادس بقوله:

كذا التزامُ أدبٍ بحسبِ   صاحبِ ذي التَّجريد والتسبُّبِ
آدابُ ذي التجريدِ قالوا: أربعةْ   إنصافُه من نفسِه لمنْ معَهْ
وعدَمُ انتصافِه لها فضِفْ   لذي احترامٍ أكبرٍ منه عُرِفْ

ورحمـةُ الأصْغِـر منـه ثـم زِدْ أربعـــةً للمتسبِّـــبِ تَفِـدْ
وهـي اجتنابُـه مـن أهـل الظُّلْـم إيثـارُه لعـامِـلٍ بـالعلـمِ
كـذا مـواسـاةُ ذوي المجـاعـة لـزومُـهُ للخَمْـس فـي الجمـاعـةَ
وسـوِّ بـالتـراب لا تعبـأ بمَـنْ عـن هـذه خـلا وللضِـدِّ ظَعَـنْ

يعني أن التزام المريد للآداب مع الحق والخلق أي أمهات الطريق ، بل هو أكبر الأمهات ، وأصل كبير من أصول المعاملات. قال أبو حفص الحداد رضي الله عنه: التصوف كله آداب ، لكل وقت آداب ، ولكل حال آداب ، فمن لزم آداب الأوقات والأحوال ، بلغ مبلغ الرجال ، ومن ترك الآداب ، فهو مطرود من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث الوصول. ا هـ بمعناه.

ثم اعلم أن الأدب ينقسم باعتبار المتجرد والمتسبب إلى قمسين: فكل واحد منهما له آداب تخصّه وتتأكد في حقه ، وهي أربعة في حق كل منها. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أربعة إن خلا الفقير المتجرد عنها فاجعله والتراب سواء: الرحمة للأصاغر ، والحرمة للأكابر ، والإنصاف من النفس ، وترك الإنصاف لها ، وأربعة آداب إذا خلا المتسبب عنها فلا تعبأنَّ به وإن كان أعلم البرية: مجانبة أهل الظلمة ، وإيثار أهل الآخرة ، ومواساة ذوي الفاقة ، وملازمة الخمس في الجماعة ، وهذا المعنى الذي ذكره الشيخ أبو الحسن هو مضمن هذه الأبيات السبعة ، وذلك في غاية الوضوح.

فقوله (إنصافه من نفسه لمن معه) أي إعطاء الحق من نفسه لمن صاحبه وخالطه على أي وجه كان. وقوله (وعدم انتصافه لها) أي عدم أخذ حق نفسه ممن معه ، وعدم نصرته لها على من صاحبه وعاشره. وقوله (وضف لذا احترام أكبر منه عرف) أي ضف لما ذكر من الأمرين احترام المريد المتجرد لمن هو أكبر منه ، لأنه أسبق منه للطاعة والإيمان ، ورحمته لمن هو أصغر منه لضعفه وتأخير تلبسه بالعصيان ، حتى لا يرى أحداً من المسلمين بعين الازدراء والنقصان ، وقد سمعت الشيخ أطال الله بقاءه مرات متعددات يقول: لا ينبغي للمريد أن يرى الفضل لنفسه على جليسه أياً كان ، فإن من رأى أنه أفضل من

جليسه لعنه الوجود كله ، ومن رأى أنه أقل من جليسه أمدّ الوجود كله ، ومن رأى مساواته لجليسه توقف مدده فلا له ولا عليه ، ويستدل على ذلك بقول صاحب الطائفة رحمه الله:

ولا ترين في الأرض دونك مؤمناً   ولا كافراً حتى تغيّب في القبر
فإن ختامَ الأمرِ عنكَ مغيّبٌ   ومن ليس ذا خسر يخاف من المكر

وقوله (إيثاره لعامل بالعلم) هو معنى قول الشيخ أبي الحسن: وإيثار أهل الآخرة ، إذ أهل الآخرة هم العلماء العاملون. قوله (وللضد ظعن) الظعن: الرحيل. ومنه قوله تعالى: ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ أي: رحل عن هذه الآداب إلى ضدها وهو سواء الأدب.

ثم أشار إلى سابعها فقال:

واعطِ للأوقاتِ حَقّاً قد وَرَدْ   واترُكْ تكلُّفاً وراقِب الصَّمَدْ

هذا من أم الأمهات ، من قام به قام بكل الآداب أو جلّها ، قال ابن عباد رضي الله عنه: وحقوق الأوقات هي المعاملة الباطنة التي تقتضيها أحوال العبد وواردات فعله المتلونة عليه. فالعبد مطالب بحقوق جميع ذلك ، عند وروده عليه ، إذ لله تعالى على كل عبد عند كل حال يحل به أو وارد يرد عليه حق جديد وأمر أكيد ، ولا يسعه إلا أن يوفيه إذ ذاك ، فإن فاته لم يجد مجالاً إلى قضائه ولا يمكنه ذلك. فعلى العبد أن يكون مراقباً لقلبه ، حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التي لا يمكنه قضاؤها إن فاتت. قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة والبلية والطاعة والمعصية ، ولله عليك في كل وقت سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية. فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنّة من الله عليه أن هداه لها ووفقه للقيام بها. ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله. ومن وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر ، والرضا رضا النفس عن الله ، والصبر مشتق من الإصبار وهو الغرض للسهام ، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضاً لسهام القضايا فإن ثبت لها فهو صابر ، والصبر ثبات القلب بين يدي

الرب ، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ [من أُعطي فشكر ، وابتُلي فصبر ، وظُلم فغفر ، وظلَم فاستغفر] ثم سكت ﷺ. فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟ فقال: [أولئك لهم الأمن وهم المهتدون] أي لهم الأمن في الآخرة ، وهم مهتدون في الدنيا. ا هـ كلام ابن عباد رحمه الله تعالى.

وصف إبراهيم عليه الصلاة والسلام على العاقل أن يكون له أربع ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي إلى إخوانه الذين يبصّرونه بعيوبه ويدلونه على ربه ، وساعة يخلي فيها بينه وبين نفسه وشهواتها المباحات. قال الشيخ زروق رضي الله عنه: ساعة المناجاة من السحر إلى طلوع الشمس ، وساعة المحاسبة من العصر إلى المغرب ، أعني يوقع في هذين الوقتين ما تيسر له من ذلك ، متى تيسر له ، وساعة الإفضاء إلى الإخوان يعينها متى تيسر له ولهم من نهاره وليله كساعة التخلية بين نفسه وشهواتها المباحة ، والأوقات كلها لله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فما فاتك من وردك بالليل استدركه بالنهار وبالعكس.

واسأل عن علم ما يخصك ، ولا تكن ممن يطالب الله لنفسه ، ولا يطالب نفسه لله. فذلك حال الجاهلين ، نسأل الله السلامة. ا هـ.

ثم أشار إلى ثامنها وتاسعها بقوله (واترك تكلفاً وراقب الصمد) أي من الأمهات ترك التكلف في كل شيء من الحركات والأقوال والأفعال ، وأصل التكلف حب المراضاة ، ومنه تقع الأيمان الفاخرة والريا والسمعة والمصانعة وغير ذلك. قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: [أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف]. وقال مولانا جلت قدرته تعليماً لنا بواسطة نبيه وتربية له ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ فناهيك من خصه أمر سيدنا ومولانا محمد ﷺ بالتبرىء منها. وقال بعض الحكماء: «لا تتزين بتزين العروس ، ولا تتبذل تبذل العبد ، وكن وسطاً بين الإفراط والتفريط ، وقالوا: لا تكن حنظلاً فترفض ولا سكراً فتسرط. وفي معناه قيل: كن حكيماً ودع فلاناً بزمن كان ، كن حليماً واجمع

إلى الحلم علماً. لا تكن سكراً فيأكلك الناس ولا حنظلاً تذاق فترمى، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ومن الأمهات أيضاً المراقبة، وهي المشار إليها في النظم (وراقب الصمد) وحقيقتها ألا ترى في العلم إلا أنت وربك، فتراقبه حق المراقبة بأن تتخذ ما عنده كنزاً تنفق منه في ظاهر أمرك وباطنه، ولا تتشوف لأحد سواه، واحذر أن يراك الله حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك، ويرى منك الالتفات لغيره، ولذلك قال بعضهم لمن استوصاه: واحذر أن يرى في قلبك غيره، فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلبك سواه. وقال بعضهم: من أشار إلى الحق وتعلق بالخلق أحوجه الله إليهم، ونزع الرحمة من قلوبهم عليه. وما أحسن قول سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه لبشر الحافي حين رآه مناماً. فقال بشر: ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلباً للثواب، فقال له سيدنا علي كرم الله وجهه: وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة برب الأرباب. وفي معناه قيل:

اضرعْ إلى الله لا تضرَعْ إلى النّاسِ واقْنَع بعزٍّ فإن العزّ في الايأس
واستغن عن كلٍّ ذي قربى وذي رحمٍ إن الغني من استغنى عن الناس

ومن خلا عن مراقبة الله تعالى، توجه إلى مراقبة الخلق، وتصنع لهم بكل ما يحببه إليهم من طاعة وغيرها، وطمع فيما في أيديهم، وهذا عين الخسران والعياذ بالله، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: عمى البصيرة في ثلاثة أشياء: إرسال الجوارح في معاصي الله تعالى، والتصنع بطاعة الله، والطمع في خلق الله، فمن ادعى البصيرة مع واحدة من هذه، فقلبه هدف لظنون النفس ووساوس الشيطان. قال شيخنا: المراد بالهدف، كل شيء مرتفع، ومنه سمي العرض هدفاً. اهـ.

ثم أشار إلى عاشر الأمهات فقال:

وعمّرِ القلبَ بأربع خصالْ بذكر غربتك في دار الزوالْ

وذِكْرِ مصرعَكِ حال مَوْتَتك ووحشةٍ ووحدةٍ بحفْرتك
وذِكرِك الوقوفَ باديَ الوَجَلْ بين يدي ربٍّ خبيرٍ بالزلَلْ

يعني أن عاشر الأمهات هو عمارة القلب بما يحييه من موتته ، ويوقظه من نوع غفلته ، وهي أربعة أسباب تقابلها أربعة :

أولها ذكر غربتك في الدنيا وعملك على ذلك بعد الإنصاف لنفسك وبالانصاف منها ، والاستسلام لما يجري عليك من البخس وغيره إذ الغريب شأنه ذلك ، وكل شخص في الدنيا فهو غريب ، ولو بلغ ما بلغ من كثرة الرجال والأموال ، وصحة الجسم والكمال ، لأنه لو قدّر عليه شيء من المكروهات كالمرض وتسلّط الظلَمة على ماله أو نفسه مثلاً غايب عند ذلك رجاله وأمواله ، وذهبت حيله وانقطعت آماله ، فلا يرجى لخلاصه إلا مولاه ، ولا يعتمد على سواه ، إذ كل من سواه لا يملك ضرّاً ولا نفعاً لنفسه ، فكيف يملك ذلك لغيره؟! . ورحم الله الشيخ أبا الحسن حيث قال: آيست من نفع نفسي لنفسي ، فكيف لا آيس من نفع غيري لنفسي ؟ ورجوت الله لغيري ، فكيف لا أرجوه لنفسي ؟ وقال الله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وهذا مشاهد محسوس ، فإنا نرى من أصابه الله بمصيبة ، ولو قلّت كوجع أصبع أو أذن أو عين لا ينفعه في ذلك كثرة ماله وحشمه ، مالم يشفه الله من علته وسقمه ، فالإنسان وسط هذا العالم غريب ليس له منه نافع ولا دافع غير الله تعالى.

وسمعت شيخنا رضي الله تعالى عنه يقول: إن الإنسان إذا فكر بعقله ، وأدرك وجه غربته في الدنيا ، وعمل على مقتضاه ، فهو غريب في غربته لقلة من يشاكله في حالته ، ومن هذا قول الشاعر:

وما غربةُ الإنسانِ في شقَّةِ النّوى ولكنهـا واللهِ فـي عَـدَمِ الشَّكْلِ

وصدق رضي الله عنه ، وهو الغريب في غربته وزمانه وأرباب محلته ، إذ من يشاكله في أحواله قليل أو معدوم ، لأن من سواه مستغرق في الغفلة

والنوم ، ويقابل هذا السبب شغل الطلب بلذات الدنيا. وقيل: الإعراض فيها مع قطع النظر عما سوى ذلك ، حتى يقول: دعني أصل غرضي اليوم ، ودعني أموت غداً. والعياذ بالله.

وثاني الأسباب الموجبة لحياة القلب: هو ذكر الإنسان مصرعه عند الموت ، وهو الذي ينسيه كل شيء من دنياه ، ويزهده في الخلق ، إذ لا ينفعونه في تلك الحالة بشيء سواء كانوا أقارب أو أجانب ، قلّوا أو كثروا ، بحسب ذلك يعمل بما يرضي الحق دونهم ، ويقابله نسيان الأجل وبعد الأمل ، وهما مفتاح الخلق وهمّ الرزق ، وهما أصل كل بلاء في الدنيا ومحنة في الآخرة ، أعاذنا الله منها. كذا قاله بعضهم.

وثالث الأسباب: ذكر وحشة القبر ، وهو الذي ينسيه أنس كل أنيس ، ومحادثة كل جليس ، إلا من حيث يستشعر أنه أنس بمعاملة إذ ذاك ، وبحسب ذلك لا يصحب الا الأولياء ، ولا يجتمع إلا حيث يرجو ثواب الله ، ويقابله شمول الغفلة والاغترار بأيام المهلة ، وهما مفتاح ترك العمل والتراخي والكسل وطلب الرئاسة وظهور البدع ، لأن قصده أن يقضي من الدنيا وطره ولا عليه مما وراءه ، نسأل الله السلامة بمنّه وكرمه.

ورابعها: ذكر وقوفه بين يدي ربّ الأرباب ، وهذا يوجب له ألا يتحرك ولا يسكن إلا بالله ولله ، فيتبع الشرع في جميع حركاته ، ويحاسب نفسه في جميع حالاته ، ويستحي من مولاه بحسن أوقاته ، ويقابله الجرأة على الله والاغترار به مع ظنّ أنه راج فيه. وقد صح أن كل راج طالب ، وأن كل خائف هارب ، كما تقدم مستوفى هذا معنى الأبيات الثلاثة. والمراد بدار الزوال الدنيا ، ولزوالها واضمحالها سميّت دار زوال.

وقوله (وحدة بحفرتك) أي قبرك. وقوله (بادي الوجل) أي ظاهر الخوف والزلل والمعصية. اهـ.

ثُمَّ بعد الفراغ من الأمهات ، شرع يتكلم في أصول الطريقة وهي خمسة ، وقد ذكرها الشيخ زرّوق من اختياره رضي الله عنه ، مع أن المشايخ رضي الله

عنهم اختلفت في ذلك. فبعضهم زاد في العدد، وبعضهم نقص منه، فكل بحسب رأيه واجتهاده، كما اختلفوا في تعيينها أيضاً، فربَّ ذاكر أصول لم يذكرها غيره، كل بحسب حاله، لكن وإن اختلفت أقوالهم في ذلك. فإذا جمعتها كلها وجدتها راجعة إلى الخمسة التي ذكرها رضي الله عنه، ثم إنك إذا تأملت ذلك وجدتها راجعة إلى ثلاثة أحوال: إقبال على الحق بلزوم الصدق، وإعراض عن الخلق بحكم الحق، ولزوم الاقتداء في ذلك. ثم إن هذه الأصول تنشأ عنها فروع ثبوتها بثبوت أصولها وانتفاؤها بانتفائها، ثم ما فقد من الأصول يرهم ما وجد منها فما يتغرر به السالك من فقد بعضِ الأصول أكثر مما ينتفع مما وجد منها، وإن كان المفقود منها أقل من الموجود فافهم.

اهـ. من الشيخ الخروبي وبعضه بالمعنى.

فقال:

وخمسةٌ هي الأصولُ الوافية   وهي التقوى في السرِّ والعلانية

يعني أن الأصول الوافية للمريد بكل ما يظهره ويزكيه، ويرفعه إلى ذروة الكمال ويرقيه، خمسة.

أولها: تقوى الله في السرّ والعلانية، ولاشك أنه أصلٌ أصيل، وإليه يرجع كل حقير وجليل. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ولأن مراد الأعمال الظاهرة والباطنة عليه، وجميع فروع الأعمال ناشئة عنه وآيلة إليه، ولذلك قال ﷺ لمن استوصاه [اتق الله فإنه جامع كل خير] وقال ﷺ [اتق الله حيث ما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن] قال شيخنا: رواه الترمذي وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه، وتقوى الله في السر يعني في ما أبطنه من الأحوال، وفي العلانية أي فيما أظهره من الأقوال والأفعال، إذ العبد مأمور بتقوى الله في جميع ذلك. فأعمال بلا تقوى معلولة، وأحوال خالية منها مدخولة، وسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول في تعريفها: هي تبرئة القلب من ذنب لم يسبق منك مثله. بخلاف التوبة فإنها تبرئة ذنب سبق منك مثله، ولها أقسام ثلاثة بحسب المقامات، فتقوى أهل الإسلام حفظ الجوارح

من جميع المخالفات إتقاء سخط الله تعالى ، وإليهم توجه الخطاب بقوله سبحانه ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فوجب حفظ الجوارح الظاهرة التي هي اليدان والرجلان والعينان والأذنان واللسان والفرج والبطن ، والباطنة وهي القلب ، من جميع المعاصي الظاهرة والباطنة ، كالحقد والحسد والعجب وغير ذلك ، فإذا حفظت الجوارح من المعاصي عمرت بالطاعة ، وتقوى أهل مقام الإيمان هي حفظ القلب من الهفوات والخطرات وإليهم الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ فإذا تطهر القلب من رذيلة الخطرات والهفوات منح شهود معاني الصفات . وتقوى أهل مقام الإحسان حفظ السرّ مما سوى الله تعالى ، فإذا تنزّه السرّ من شهود الأغيار ، منح شهود عظمة الذات .

قال معناه الشيخ الخروبي رحمه الله : وللتقوى شروط وآداب ، فشروطها ثلاثة : الإعراض عن جميع المخالفات وأسبابها الظاهرة والباطنة ، ومواظبة الطاعة ، وإلحاظ القصد في التقوى لله تعالى وآدابها ثلاثة : التحفظ من الشّبهات ، ومن فضول الحلال في الأكل والشرب واللباس ، ومن فضول الكلام اهـ منه رحمه الله .

ثم أشار إلى الأصل الثاني بقوله :

كذا اتّباعُ سنّةِ الرسول بالقولِ والفعل بلا عدولِ

يريد أن اتباع سنّة الرسول ﷺ في الأقوال والأفعال ، أصل كبير من أصول الطريقة ، فمن لا اتّباع له لا طريقة له ، فأهل الطريقة مطالبون باتباع الرسول الكريم والدليل العظيم سيدنا محمد ﷺ في أقواله وأفعاله عادية أو عبادية ، فلا ينبغي للسالك أن يتسمح في ترك شيء من أقواله ﷺ وأفعاله العادية والعبادية .

قال الإمام الخروبي رحمه الله تعالى : نقل سيد أبو عبد الله بن الحاج في المدخل عن الإمام أبي حامد الغزالي رضي الله عنه أنه قال في كتاب الأربعين : إن مفتاح السعادة في اتّباع السنّة والاقتداء برسول الله ﷺ في موارده ومقاصده وحركاته وسكناته ، حتى في هيئة أكله وقيامه ونومه وكلامه ، لست أقول ذلك في آدابه فقط ، لأنه لا إهمال سنن الواردة فيها بل ذلك في جميع أمور العادات

يحصل فيه الاتباع المذكور ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ، وقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ بك أن تتسرول قاعداً ، وتعمم قائماً ، وتأكل بيمينك ، وتقلم أظفارك وتبدأ بمسبحة يدك اليمنى وتختم بابهامها ، وفي الرجل تبدأ بخنصر اليمنى ، وكذلك جميع حركاتك وسكناتك ، وقد كان محمد بن أسلم لا يأكل البطيخ لأنه لم تنقل كيفية أكل رسول الله ﷺ ، وسهى أحدهم ولبس الخف وابتدأ باليسرى ، فكفَّر حنطة وهي ستون فقيراً أو أربعون إردباً ، فلا ينبغي أن تتساهل في ذلك وتقول: هذا مما يتعلق بالعبادة ، فلا تفلح ، فإن ذلك يغلق عنك أبواباً عظيمة من أبواب السعادة ا هـ كلامه.

وقال في موضع آخر بعد هذا: وكما أن العبد مطالب بالاقتداء في الأقوال والأفعال التي هي من وظائف الظاهر. فكذلك يطالب بالاقتداء في الأحوال التي هي من وظائف الباطن ، والأحوال هي أحواله ﷺ ، التي هي خلقه وحلمه وعفوه وأمانته ، وعفته وعقله وزهده ، وتواضعه وصبره وشكره وجوده وشجاعته وحياؤه ومروأته وصدقه وتؤدته ووقاره ورحمته وحسن آدابه وجميل معاشرته ، فهذه أحواله ﷺ ، المتخلق بها في الباطن ، فالمريد السالك المطالب بالتخلق بها. ا هـ. منه بلفظه.

ثم أشار إلى الأصل الثالث فقال:

اعْرِضْ عن الخَلْقِ سواءً أدْبَرَوا أو أقبلــوا فــاللهُ نِعْـمَ النَّـاصـرُ

يعني أن من أصول الطريق إلى الله تبارك وتعالى الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار ، إذ به يصح الإقبال على الخالق ، إذ ليس للقلب إلا وجهته كما تقدم ، وإنما كان هذا أصلاً من أصول الطريق لما ينبني عليه من الأمور التي لا يصح الدخول في الطريقة دونها كالصدق مع اللهِ وإفراد الوجهة إليه والاستناد والاعتماد والتوكل على الله والاكتفاء على الله والثقة به ، هذا مع ما يصحب الإعراض عن الخلق من السلامة من أمور قادحة في التوحيد ومفسدة لإرادة المريد كالسكون إلى الخلق والأنس بهم ، والركون إليهم

والرياء والمداهنة لهم والاستناد والعمل على مافي أيديهم وغير ذلك من الأمور المصاحبة للإقبال عليهم والركون. ولذلك كان الركون إليهم قاطعاً على الوصول إلى الله تعالى كما تقدم في القواطع.

وقوله (سواء أدبروا أو أقبلوا) يريد أن السالك ينبغي له أن يكون معرضاً عن الخلق في حال إقبالهم عليه وإدبارهم عنه، فلا إقبالهم يدعوه إلى الإقبال عليهم، ولا إدبارهم يدعوه إلى الإعراض عنهم، بل يكون إعراضه عنهم لله ثقة به وتقرباً إليه لا لأجل حظ نفسه. ويرى إدبارهم عنه نعمة من الله عزّ وجل أنعم بها عليه، حتى لا يلتفت إليهم ويسكن بقلبه إليهم. فيكون موحداً حقيقياً إبراهيمياً حنيفياً، لأن الالتفات ورجاء النفع منهم ودفع من قبلهم يوقعه في العبودية والرقية لهم، ويصيّرهم آلهة أصناماً يعبدها من دون الله. أما إن أدبروا عنه فالغالب عليه أن يرجع إلى مولاه ويقطع رجاءه من سواه، وهذه نعمة عظيمة، قلَّ الشاكرون لها والمغتبطون بها، بل تجد أكثر العباد يحسب أن إدبار الخلق عنه عقوبة له بسبب ذنب ارتكبه عَلمه أو لم يعلمه، فيرجع إلى الله بالتوبة والاستغفار لتحصيل إقبال الخلق عليه الذي هو نعمة في ظنه، فقد ظن النعمة وليس بمصيب في باطنه. فقد جرت عادة الله مع عباده الصالحين أن يحميهم من إقبال الخلق عليهم غيرة منه تعالى عليهم أن يركنوا إليهم ويساكنوهم، ولذلك أجرى الأذى عليهم من الخلق كي لا يساكنوهم في قلوبهم. قال ابن عطاء الله في الحكم: إنما أجرى الأذى عليك منهم كي لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء. اهـ.

وذلك أن الإنسان إذا ابتلي بإقبال الخلق عليه، اشتغل بهم عن الله حتى ينسى ذكره بذكرهم، ونظره بنظرهم، وهذه فتنة عظيمة. قال بعضهم: اللهَ اللهَ، والناسَ الناسَ، نزّه لسانك عن ذكرهم وعن التماثيل في قلوبهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عنك، فلا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك، وقد تم ورعك، وقُلْ اللّهم أجرني من ذكرهم، ومن العوارض من قبلهم، ونجني من شرهم، واغنني بخيرك عن خيرهم، وتولني بالخصوصية من بينهم، إنك على كل شيء قدير. اهـ.

وسمعت شيخنا يقول: قوله اللهَ اللهَ والناسَ الناسَ، يحتمل النصب على الإغراء فيهما، أو التحذير فيهما، أو التحذير في الأول والإغراء في الثاني، والعكس فهي أربع وأظهرها الأخير وهو الإغراء في الأول والتحذير في الثاني، أي الزم الله بالتعلق به والاعتماد عليه، واحذر الناس أن يتعلق طلبك بهم أو تسكن إليهم. اهـ.

وقال سيد أبو الحسن رضي الله عنه: آذاني إنسان مرة فضقت ذرعاً لذلك، فنمت فرأيت قائلاً يقول لي: من علامات الصديقية كثرة أعدائها، ثم لا يبالي بهم. وقال بعض العارفين الصوت من العدو سوط الله يضرب به القلوب إذا ساكنت غيره، لولا ذلك لرقد القلب في ظل السفه والجاه وهو حجاب عن الله تعالى عظيم، وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدأ طريقهم سنة الله في أحبائه وأصفيائه. اهـ.

ثم أشار إلى الرابع من الأصول فقال:

وارضَ بِقِسْمَةِ إلهك الخبيرْ في كلِّ ما أعطى قليلاً أو كثيرْ

يريد أن من الأصول الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير من الرزق، إذ هو الخبير بما يصلح للعبد من قليل أو كثير، فقد قسم لك رزقك عالماً بكفايتك ومافيه منفعتك ومضرتك، فلا تتهمه في قسمته لك، فهو أرفق بك من أمك وأبيك، بل من نفسك وكل قريب يواتيك، وإنما طلب من العبد الرضا عن الله في القليل والكثير أن ذلك من علامات التحقيق في مقام الرضا، لأن وجود الرضا حال القلة كحال الكثرة، وحال المنع كحال العطاء، دليل على أن الرضا وقع على غير علة، بل لمجرد العبودية، وهذا هو مطلوب الحق من عبيده، قال شيخنا رضي الله عنه معللاً لكون الرضا مطلوباً من العبد حال القلة وحال الكثرة، أما في حال القلّة فظاهر للقيام بمقام القناعة الذي هو أصل من أصول الطريق إلى الله تعالى، وأما حال الكثرة فللقيام بمقام التفويض الذي لا يتحقق إلا به، كما سيذكر بعد إن شاء الله تعالى.

وذلك أن النفس تستشرف لمقام الفقر والتجريد، وتزعمه أنه عمدة لكل

سالك ومريد، ودسيستها الإقلال بمقام التفويض والتسليم والاتهام لحكمة المدبر الحكيم، ولهذا قال في الحكم: إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب، فذاك من الشهوة الخفية الخ كلامه رضي الله عنه. قلت: أما الرضا حال الكثرة دون القلّة فهو مطلوب النفس ممن استولت عليه مثلي، فليس رضاه عن الله لله، وإنما هو لحظ نفسه، فلو زالت الكثرة بضدها زال الرضا بضده، لأنه المعلّل بعلة ينتفي بانتفائها، قال الشيخ الخروبي رضي الله عنه: الرضا أحد مقامات اليقين، يترقى إليه من مقام التفويض الذي هو أعلى مقام التسليم، والباعث على الرضا حسن الظن بالله سبحانه. وهذا الأصل عليه مدار العبودية وهو أساسها، ولذلك كان أصلاً من أصول الطريقة، ولا يصح لذي طريقة تتحقق فيها دونه. ا هـ. منه بلفظه.

ثم أشار إلى الخامس بقوله:

وارجَعْ له في كُلِّ حالٍ قد أتتْ سَراءُ أو ضَراءُ كيف ما وفَتْ

يعني أن من أصول الطريق إلى الله تعالى الرجوع إلى الله سبحانه في السرّاء والضراء وفي كل حال من الأحوال، وإنما كان هذا أصلاً لما ينشأ عنه من تحقيق العبودية بسكونها تحت تصاريف القضا بنعمة الرضى، فالرجوع إلى الله في السرّاء رجوع بوصف الشكر والرجوع إليه في الضّراء بوصف الصبر، ولهذا قال سيدنا علي كرم الله وجهه: لو كان الصبر والشكر مطيتين ما باليت بأيهما أركب لاستوائهما عندي إذ كل منها يرده إلى الله تعالى، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي بهما. فينبغي للمريد أن يرجع إلى الله تعالى في كل أحواله طاعة أو معصية غنى أو فقراً صحة أو مرضاً. قال الشيخ زروق في بعض رسائله: واعلم يا أخي أن النفس من شأنها التعلق بالأوهام، والتمسك بالدعاوى والافتراء على الله تعالى، فإذا لم تجد إلى ذلك سبيلاً من طريق الأفعال أدخلته من طريق الأحوال، فتجدها قانطة مما يصدر من أفعال ردية، ولا ترضى بشيء من النعم التي منَّ الله عليها بها خالق البرية، فتستوحش تارة، وتتأنس بأحوالها الحسنة لما استوحشت

مما يجره عليها من أضدادها ، ولكان أمر الله أهم عليها من احتياشها بأن تبادر للتوبة عند وقوع الذنب دون قنوط ولا ضيق ولا تسارع للابتهال له تعالى فيما ترجوه من إصلاح الحال من غير تخبط ولا حيرة. فطِبْ نفساً أيها الأخ في الله بمولاك ، وتوجه لشكره على ما أولاك من العافية والتوفيق. وانظر لما أنت فيه مع ما كنت عليه قبل هذا. بل انظر لما أهملت له من الوقوف على باب الله تعالى مع استغراق من تعلم فيما لا تفريج لك عليه. واعلم أن ذلك ليس من توفيقك ولا طاقة لك عليه ، ومن أنت حتى تنتسب لجناب الحق ، ولو كنت ما كنت؟ بل من أنت حتى تعرف باب الله ولو عملت ما عملت؟ وآلاف الآلاف منك في المزابل وخدمة المراحيض والظلمة وصحبة من لا ترضى حاله من أهل الكفر والعصيان ، واعتبر هذا بقوله ﷺ [انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم] وهو عام في كل شيء دنيا ودينا. ا هـ. كلامه ، وله مناسبة هنا في الجملة.

قال الشيخ الخروبي رحمه الله: واعلم أن لهذه الأصول الخمسة دواعي تدعو إليها وثمرات تنشأ عنها ، فداعي التقوى إرادة القرب ، وداعي الاتباع شهوة الحب ، وداعي الإعراض عن الخلق تعلق القلب بالحق ، وداعي الرضا عن الله تعالى حسن الظن به ، وداعي الرجوع إلى الله تعالى المعرفة ، وثمرة التقوى القبول ، وثمرة الاتّباع الوصول ، وثمرة الإعراض عن الخلق وجود ملازمة الموصلة ، وثمرة الرضا عن الله دوام المواصلة ، وثمرة الرجوع إلى الله تعالى تحقيق العبودية. ا هـ. كلامه.

تتمة: قال الشيخ زروق رضي الله عنه: ولهذا الأصول الخمسة أسباب تتحقق بها ، فتحقيق التقوى بالورع والاستقامة ، وتحقيق اتباع السنّة بالتحفظ وحسن الخلق ، وتحقيق الإعراض بالصبر والتوكل ، وتحقيق الرضا عن الله تعالى بالقناعة والتفويض ، وتحقيق الرجوع إلى الله تعالى بالحمد والشكر ، وقال أيضاً: وهذا الأصول أصول خمسة أيضاً وهي: علوّ الهمة ، وحفظ الحرمة ، وحسن الخدمة ، ونفوذ العزمة ، وتعظيم النعمة.

قال الخروبي: فعلو الهمة أصل للتقوى والورع والاستقامة، وحفظ الحرمة أصل لاتباع السنّة، إذ من حفظ الحرمة لا يخرج عن طريق الاتباع، ولا يترك التحفظ من أسباب الحلال ولا حسن الخلق الحافظ من ورود العلل، وحسن الخدمة أصل للإعراض عن الخلق، إذ من حسنت خدمته توجه إلى الحق وأعرض عن الخلق، واستعان على ذلك بالصبر والتوكل، ونفوذ العزمة أصل للرضا عن الله تعالى، إذ من نفذت عزمته رضي عن الله تعالى فيما يرد عليه من المقدور وقنع بالميسور، وفوّض إلى الله في جميع الأمور، وتعظيم النعمة أصل للرجوع إلى الله تعالى في السرّاء والضرّاء، إذ من عظّم النعمة رجع إلى الله تعالى على سبيل الحمد والشكر له عليها اهـ. وبعضه بالمعنى.

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه أيضاً: من حفظ حرمة الله تعالى، حفظ الله حرمته، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته، ومن أنفذت عزمته دامت هدايته، ومن عظمت في عينه شكَرها، ومن شكَرها استوجب المزيد من النعم بحسب وعده الصادق اهـ. قال الخروبي: يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقوله في آخر البيت (كيف ما وفَت) فيه إشارة إلى وفاء وتمام ما قصد من نظمه من القواطع والسوالب والأصول والأمهات.

ثم قال مبيناً لعدد ما اشتمل عليه النظم من المسائل ومقسماً إلى قسمين، قسم للتخلية وقسم للتحلية:

فذي ثلاثونَ فنصْفِها دُرَرْ   حَلِّ بها النفسَ يجانبْكَ الضَّرَرْ
ونِصْفُهُ الأوّلُ كالأفاعي   ففِرَّ منها لا تجبْ لداعي

يريد أن هذه الأشياء المنظومة مجموعها ثلاثون مسألة، فنصفها الأخير الذي هو الأصول والأمهات درر تصلح للتحلي بها والتزين بمقتضاها، فحلِّ نفسك بها يجانبك كل ضرّ ديني ودنيوي، فيكون سليم القلب بل صحيح القلب، وفي قوله (درر) استعارة مصرحة حيث شبه الأمهات والأصول بالدرر، والجامع النفاسة في الكل والملاحية للتحلي بها، ثم استعار اللفظ الموضوع المشبّه به للمشبه والقرينة حالية.

ونصفها الأول الذي هو القواطع والسوالب كالأفاعي جمع أفعى وهي معروفة ، وإذا كانت كذلك ، ففِرَّ منها ، ولا تجب داعياً دعاك إلى الرجوع إليها من الحظوظ النفسانية ، ووجه تشبيهها بالأفاعي أن كلاً من النوعين يقتل من قاربه وركن إليه ، ويهلك الهلاك التام ، ولا ينجيه إلا الفرار إلى الله تعالى على ممر الليالي والأيام.

بل هذه القواطع أشد من الأفاعي ، إذ الأفاعي مقصور ضررها على الدنيا ، بخلاف هذه فإنها تردي صاحبها في الدنيا ، وترجع له أفاعٍ تلدغه في العقبى ، نسأل الله السلامة منها بمنّه وكرمه.

ثم أشار إلى مدح هذه المسائل والثناء عليها ترغيباً للمريد في تحصيلها والعمل بمقتضاها بالشيخ كما تقدم. فقال:

فهي العلومُ كلُّها إذ جُمِعتْ　　لعاملٍ خيْراً وشراً أُبْعِدتْ

يعني أن هذه الثلاثين مسألة هي مرجع العلوم كلها وأوصلها ، إذ كل علم هو نوع منها أو مأمور بها لأجلها ، ثم علّل ذلك بقوله (إذ جمعت) أي جمعت للعامل بمقتضاها كل خير ، وأبعدت عنه كلَّ شر. وضربناه على عموم النكرة في الإثبات كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

إذ المقصود من العلوم بأسرها هو تحصيل أنواع الخيرات ، والتباعد من الشر والسلامة من الآفات ، وحيث هذه المسائل بهذا المقصد فهي قائمة مقام جميع العلوم لمن علمها وعمل بمقتضاها.

ثم أشار إلى بيان من أفادها فقال:

كذا أفادَها لنا الأستاذُ　　نِعْمَ المفيدُ ونِعْمَ الملاذُ

أي أن الأستاذ وهو شيخنا المتقدم ذكره أطال الله بقاءه ، أفادنا هذه الثلاثين مسألة على الوجه الذي ذكرت عليه في النظم من غير زيادة ولا نقص في تعدادها ، لا في تقرير معانيها ، فقد أطال رضي الله عنه في تفصيلها رغبة في

تحصيلها ، فجزاه الله عنا أحسن الجزاء ، وأفاض علينا من أنواره وغمسنا في تبار أسراره بمحمد وآله وأنصاره.

وقوله (نعم المفيد ونعم الملاذ) جملتان سيقتا للثناء على الأستاذ المذكور. والملاذ: الملجأ.

ثم ختم المنظومة بما ابتدأها به من الحمد والثناء فقال:

والحمدُ للهِ على التَّمام ونِعْمةِ الإيمانِ والإسلامِ

أي أحمد الله على ما مر به من إتمام هذه المنظومة ووفق إليه ، وأنعم به من الإيمان والإسلام ، اللذين لا يحصى شكرهما على ممر الأعصار والأعوام.

وقد انتهى ما أردنا إيراده من التقييد المأمور به ، وفيه إن شاء الله كفاية ، والحمد لله في المبدأ والنهاية. وصلى الله على سيدنا محمد وآله البالغين إلى أقصى غاية ، ووافق الفراغ منه ليلة عاشر محرم الحرام ومفتتح عام ١٢٢١ إحدى وعشرين ومائتين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أزكى التحية والسلام. والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كمل الشرح المبارك المسمى (رسالة المريد في قواطع الطريق وسوالبه وأصوله وأمهاته) إلى شيخ شيخنا العلامة المحقق والدراية المدقق ، قطب الزمان والعصر ، ونخبة الأوان والدهر ، وعمدة المريدين ومربي السالكين سيدي ومسندي ، ومن على الله ثم عليه اعتمادي ، الشيخ المنور سيدي محمد ابن عزّوز ، أفاض الله علينا من بركاته آمين ، وحشرنا في زمرته آمين ، إنه على ذلك قدير وبالإجابة إن شاء جدير ، وهو نعم المولى ، ونعم النصير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ووافق الفراق من نسخه صبيحة يوم الأحد في شهر الله المعظم شعبان عرفنا الله خيره وخير ما بعده ، ووقانا شره وشر ما بعده سنة ١٢٣٩ من هجرته عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، نسخته للشيخ العارف بالله المتوّج بأسرار

الطريقة الخلوتية الرحمانية سيدي علي بن عثمان نفعنا الله ببركاته وبركات آبائه وأجداده آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمّ على يد ناسخه العبد الفقير إلى مولاه المسعود بن السعيد اليزيد نسباً المالكي مذهباً، الأشعري اعتقاداً.

* * *

والملاذ الملجا ثم ختم المنظومة بما ابتداها به من الحمد والثناء. فقال

والحمد لله على التمام ، ونعمة الايمان والاسلام اي احمد الله على ما من به من

اتمام هذه المنظومة ووفقني اليه وانعم به من الايمان والاستسلام اللذين لا يحصى

شكرهما على مر ممر الاعصار والاعوام وقد انتهى ما اردنا ايراده من التقييد

الماهر به وفيه ان شاء الله كفاية والحمد لله المبدا والنهاية وصلى الله على سيدنا محمد واله

الى الغير التي لا انقضاء لها ووافق الفراغ منه ليلة عاشر محرم الحرام ومفتتح عام ١٢٢١

احدى وعشرين ومائتين والف من الهجرة النبوية على صاحبها ازكى التحية والسلام

والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم واخر دعوانا

ان الحمد لله رب العالمين كمل الشرح المبارك المسمى برسالة المريد

في قواطع الطريق وسوالبه واصوله وامهاته الى الشيخ شيخنا العلامة المحقق

الرباني المدقق قطب الزمان والعصر ونخبة الاوان والدهر وعمدة المريدين ومربي

السالكين سيدي ومسندي ومن على الله ثم عليه اعتمادي الشيخ المنور سيدي

محمد بن عزوز اعاض علينا من بركاته امين وحشرنا به في زمرته امين انه على ذلك

قدير وبالاجابة ان شاء الله جدير وهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة

الا بالله العلي العظيم ووافق الفراغ من نسخه ضحوة يوم الاحد في شهر الله

المعظم شعبان عرفنا الله خيره وخير ما بعده ووقانا شره وشر ما بعده

١٢٤٤

سنة من الهجرة عليه افضل الصلاة وازكى التسليم

نسخته للشيخ العارف بالله المتوج باسرار الطريقة الخلوتية الرحمانية

سيدي علي بن عثمان نفعنا الله ببركاته وبركات ابائه واجداده

امين واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين تم على يد ناسخه العبد الفقير

الى مولاه السعود بن السعيد اليزيدي نسبا المالكي مذهبا الاشعري

اعتقادا .

الدار الحسينية للكتاب